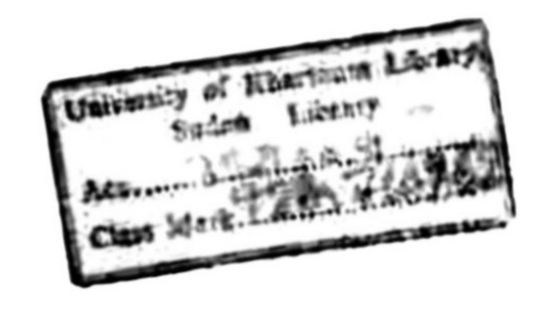
شركة بيت الخرطوم للطباعة والنشر

رجال حول المهدي

أمينة فيفيان ياجي

الطبعة الأولى ابريل ٢٠٠١



اسم المؤلف : أمينة فيفيان ياجي
عنوان الكتاب : رجال حول المهدي
الناشر : شركة بيت الخرطوم للطباعة والنشر
الطبعة الأولى ابريل ٢٠٠١

رجال حول المهدي

امينة فيفيان ياجي

شكر وتقدير

* الى كل الذين أسهمو بجهدهم فى إعداد هذه الترجمة .

* وأخص منهم مكى بشير مصطفى الذى لولا مثابرته وصبره الفائق لما رأى هذا الكتاب النور .

* الى عبد المنعم الشاذلى الذى تفضل بمراجعة الترجمة.

* الى كل اولئك الذين أمدونى بمعلومات شخصية عن الرجال الذين قامت المهدية على أكتافهم من أسلافهم .اليهم جميعا أوجه شكرى الجزيل ، وجزاهم الله خيرا على كل ما قدموه .

إهداء

إلى ذكرى شهداء كررى وأم دبيكرات والى كل
اولئك الذين جعلونى أحب السودان أمواتاً وأحياءاً.

نبئى ابنى بالأبطال من أسلافه

دليه جاهدة على السير فى دربهم

حديثه عن مآثر شعت بها أسماؤهم

وعن فعالهم بدلا عن من كانوا

راسين ، أندروماك ،

الفصل الرابع المشهد الأول

****

تعطلت لغة الأحياء وحدثنى أولئك الذين الذين مضوا

أنا دونوآى

****

لا تظلموا الموتى وان طال المدى

فاني أخاف عليكم أن تلتقوا

المعرى

تقديم

مؤلفة هذا الكتاب الدكتورة أمينة فيفيان ياجى فرنسية الأصل والنشأة وسودانية تجنسا، تزوجت الدبلوماسى الراحل الدكتور ياجى وشاركته حياته وملأته فكرا وسعادة ، ثم استقرت معه فى السودان ، وأحبت هذاالبلد حبها لزوجها وأخلصت له ونذرت نفسها تعلم اللغة الفرنسية لأبناء السودان وتكتب فى تاريخ السودان بجد ومثابرة.

عنيت الدكتورة امينة بترجمة تاريخ نعوم شقير ، وهو كتاب يتناول جغرافية السودان اقليميا وبشريا . وتاريخ السودان من أقدم عصوره إلى وقت تأليفه وهو أوائل العهد الثنائى . وهو أول مؤلف يتناول السودان بهذا الطول وهذا التفصيل ، بل وبالدقة على غير ما يقال عنه تعجلا ، وهو يستحق بغير شك الترجمة الى اللغة العالمية الثانية . وقد أحسنت الدكتورة اذ قامت بهذه المهمة ، اذ نقلت المهتمين بتاريخ السودان من الفرنسيين من المائدة الانجليزية الى المائدة الفرنسية التى يأنسون اليها.

ثم أعدت اطروحتها للدكتوراه فى دراسة لشخصية الخليفة عبد الله ودوره التاريخى ، وبما أن الدراسة كانت باللغة الفرنسية فإنا لم نقف على ما صنعت الدكتورة ، الا أنه من الواضح من دراساتها التى عرضتها فى بعض المؤتمرات التاريخية أنها تعطف على الخليفة عبد الله وتنظر الى دوره بايجابية مخالفة فى ذلك النظرة التقليدية السلبية لهذه الشخصية الرئيسية فى تاريخ السودان . ولها دراسات متفرقة فى تاريخ السودان ، قرأت بعضها فى المؤتمرات وبعضها الآخر نشر وبعض آخر لم ينشر .

وفى هذا الكتاب الصغير تتناول الدكتورة بالدراسة عددا من الشخصيات الرئيسية فى تاريخ المهدية ، وقد بدأت بالخليفة عبد الله وامتدت الى بعض أقاربه ممن تولوا مسئوليات كبيرة فى عهده والى بعض من تولوا المهام من غير قرابته .وقد استعانت فى ذلك بما توصلت اليه من مطالعاتها في التاريخ وبما وقفت عليه من مصادر أسرة الخليفة عبد الله وأُسر من ترجمت لهم وبعض اللصيقين بهم ، وقد فعل ذلك من قبلها نعوم شقير والمؤرخ العسكرى عصمت زلفو فى بحوثه المتعددة .

تتناول الباحثة شخصياتها عن قرب متتبعة الخلفية الأسرية والنشأة ثم فى مسرح العمل

مقدمة

هذه الصفحات لا تزعم لنفسها بعداً علمياً ، فهى ليست سوى سير كسير الرجال العظام التى كتبها بلوتارك [1]. إنها سير رجال تركوا الدنيا وما فيها ولبوا النداء، إنهم رجال جاءوا من مختلف أرجاء السودان : بدو وحضر سادة وعبيد ، أجابوا جميعهم بقولهم « لبيك » وختموا على قسمهم بدمائهم ، لقد قاتلوا بلا توقف ولا هوادة فى سبيل الغاية التى وضعوها نصب أعينهم وهى إعادة صفاء الاسلام ونقائه كما كان فى صدر الإسلام وذلك تحت راية الدعوة المهدية .

هؤلاء هم الرجال الذين قامت على أكتافهم وهم كثر ، منهم من حفظ الناس ذكراه ومنهم من نسوه .

والأمراء الذى أقدمهم هنا هم اولئك الذين خاطبوا وجدانى قبل أن يسبلوا واكف دمعى ، لقد وقفت على أرض كررى ،واستعدت فى ذهنى بل تمثلت أمامى هجمات جند الله البطولية التى قادها الأميران عثمان أزرق وإبراهيم الخليل ، ورغم أن نيران المدافع قد حصدت مجاهدى الراية الزرقاء ومزقتهم كل ممزق ، فإن قتالهم كان قد استمر ، وظلت الراية عالية حتى استشهدوا عن بكرة أبيهم أجل ، إن الموتى فى كررى قد تحدثوا إلى حقا. أما فى أم ديبكرات فقد زالت الحمى والاضطراب اللذان كانا قد تملكانى فى كررى ، وحلت محلها طمأنينة القسم الذى تم الوفاء له ، لقد أدى رجال المهدية مهمتهم ويمكنهم الان أن يضعوا سلاحهم وأن يتلقوا الموت بهدوء فهو طريقهم الى جنات الخلد والنعيم الذى لا يزول .

---

(١) بلوتارك : فيلسوف وكاتب إغريقى ، ولد فى القرن الأول الميلادى ، وقد اشتهر بكتابة سير الرجال العظماء . (المترجم) .

لقد ذرفت الدمع مدراراً فى كررى من أجل أناس أعزاء على النفس ماتوا من أجل غاية سامية ، نفخر بها، بيد أن موتهم يمزق نياط القلوب .

أما فى أم دبيكرات فقد كانت حرارة اللقيا ، لقاء أصدقاء فارقناهم منذ زمن طويل ، أو قل هو الإحساس الذى نحس به تجاه من يفارقوننا ولكننا نعلم أننا سنلتقى بهم يوما ما .

أتمنى أن تشعل هذه الصفحات الرغبة فى نفوس قارئها لمعرفة المزيد عن حياة هؤلاء الأبطال وللكتابة عنهم .

وأرجو ألا أكون قد ظلمتهم وأنا أتتبع حياتهم وأفعالهم ، فانا أعلم علم اليقين أنى يوما آت سأقابلهم .

أم درمان ٢٤ سبتمبر ١٩٨٩م

الخليفة عبد الله

في أكثر الأماكن كثافة وسط إحدي غابات جنوب دارفور ، وفي مكان يعج بالحيوانات المتوحشة ، تسلل فتى وسط الأشجار ، كان متسلحاً بحربة في يده وسكين علي ذراعه شأن كل الرجال في ذلك الزمان. وكانت تلوح علي وجهه أمارات حزن عميق ممزوجة بإصرار شديد ، ورغم أن ظاهره ينم عن ألم دفين غير أنه كان بادى التحدى والإصرار تجاه الموت والقدر ، شأنه في ذلك شأن المقاتل الذاهب إلى حرب غير مأمول العودة منها ، بيد أن التصميم على خوضها حتي الموت يملأ كل جوانحه . ذلك الفتي كان هو عبد الله بن الشيخ محمد ، حفيد الشيخ على الكرار – شيخ الطريقة السمانية في دارفور ، ففي ذلك الصباح كان الشيخ محمد جالساً ،كعادته كل يوم ، في مسجده يحيط به حيرانه (تلاميذه) وأبناؤه . وكان الشيخ محمد قد بدأ الدرس حينما دخل عليه ابنه عبد الله ليأخذ مجلسه المعتاد بين رفاقه ، توقف والده عن الكلام وتأمله ملياً في صمت ثم قال له:

إن مكانك ليس بيننا

فانسحب الفتى والحيرة تمزقه ، أي ذنب جناه حتى يطرده والده بتلك الصورة المهينة من حلقة الدرس اليومية.

فجأة قرر عبدالله أمراً وهو أن يعرض نفسه لابتلاء الله وقال في نفسه:

(سأذهب إلى الغابة حيث تجتمع الأسود! فإذا نجوت فإن في ذلك دليل على أنني لم أقترف ذنباً وأن والدى لم يكن على حق ، وإذا مت فإن ذلك البرهان على أنه كان على حق وأنني عوقبت على ذنب ارتكبته دون علم ، فاحكم بيننا يا إلهى وأظهر الحق).

لم يحمل عبد الله معه شيئاً سوى حربته ، وتوغل في جوف الغابة حيث اعتاد الصيد. إذ إنه كان ماهراً في صيد الأسود والحيوانات المتوحشة الأخري . وفجأة قفز عليه أسد قبل أن يتمكن من الدفاع عن نفسه، وحمله بين فكيه وذهب به إلى المسجد حيث كان والده يقوم بتدريس طلابه. وقبل أن يفيق الشيخ وطلابه من دهشتهم قفز الأسد فوق رؤوس الطلاب ووضع عبد الله عند قدمي والده وخرج. رفع الشيخ محمد ابنه وسأله بصوت متهدج:

لماذا فعلت هذا يا بنى ؟

فأجابه عبد الله :

أردت أن يبتليني الله وأن أعرف مافعلته حتى أستحق سخطك عليّ وطردك إياى من حلقة الدرس . فلو نجانى الله من الهلاك فإن فى ذلك الدليل على براءتى ، وأما إذا مت بين مخالب الأسد وبراثنه فإن ذلك يعني أنى استحق غضبك عليّ.

فأجابه الشيخ قائلاً :

يا بني إننى لم أغضب عليك ، غير أنه يجب عليك أن تعلم بسهولة شديدة أن مكانك لم يعد بيننا ، هناك شيخ آخر يجب أن تتبعه وسيكون هذا الشيخ هو المهدي المنتظر وستكون خليفته ، وقد حان الوقت لتذهب وتبحث عنه .

وقعت هذه الحادثة قبل مغادرة الشيخ على الكرار لديار التعايشة.[١]

وعبد الله هو الابن الثانى للشيخ محمد الذي لقب بتورشين[٢] نسبة لشجاعته وصفاته البطولية ، وقد كانت كل عائلته والتي يرجع نسبها إلى الرسول «ﷺ» من علماء الإسلام أباً عن جد . هاجر أسلاف الشيخ محمد إلى تونس بعد النكبات التي حلت بأحفاد العلويين ، حيث استقر جدهم الأكبر الشيخ محمد القطبي الواوى عبدالله زعيم الطريقة السمانية الذى كان يعتبر قطب زمانه ، بمعني أنه كان الإمام الروحى الذى يقود أولياء الله إلى الباطن ، أما فى الظاهر فهو الشيخ الذى يقود البشر إلى الطريق القويم إلى يوم الدين . وكان قبل وفاته فى تونس قد طلب من أبنائه الهجرة إلى شرق افريقيا لنشر الإسلام فيها. وكان أحد مريدى الشيخ عبد الكريم السمانى[٣] واسمه الجنيد[٤] قد ترك الحجاز وأقام وعائلته فى جنوب دارفور وقد استمر أحد أحفاده ، واسمه التعيش[٥] ، على الطريقة السمانية بينما اعتنقت بقية القبائل المنحدرة من الشيخ الجنيد الطريقة التجانية .

قرر الشيخ موسى بن الشيخ محمد القطبى الانضمام لهذه الطريقة السمانية وحضر إلى دار التعايشة فى جنوب دارفور ، ثم تزوج بإحدى بنات أولاد أم سرة من قبيلة الجبارات . وتوفى بعد أن أسس خلوة ومسجداً ، تاركاً ثلاثة أولاد على الكرار وعثمان وعمر [٦]، فخلف على الكرار والده على زعامة الطريقة السمانية. استمر في تعليم القرآن مثل والده ، حيث أنشأ عدة خلاوي ومساجد في دار التعايشة والديار المجاورة لها ، كذلك كان يساعده ابنه محمد الذي أصبح بدوره شيخاً معروفاً بالورع وبمعرفة الفقه وعلوم القرآن الكريم . ثم قرر على الكرار الذهاب الى الحج والإقامة بمكة ، فترك ديار التعايشة يتبعه أبناؤه وأخته وعائلاتهم

ومريدوه. وحيثما ذهب كان الناس يطالبونه بالإقامة بينهم وتعليمهم مبادئ الدين وقراءة القرآن ، وقام الشيخ على الكرار بتأسيس عدة خلاوى حتى وصل إلى هجليج فى دار الرزيقات حيث توفى إلى رحمة مولاه ودفن فيها . وبعد دفنه تحرك ابنه محمد صوب الشرق تتبعه بقية عشيرته . وكما كان يحدث مع والده من قبل فحيثما حلَّ كان يستوقفه الناس ويرجونه أن يقيم بينهم لكي يعلمهم أُمور دينهم ، فنهض بتأسيس عدد من الخلاوى والمساجد ، ولما وصل إلى دار جمع طلب منه الشيخ عساكر ابو كلام الإقامة بين ظهرانيهم وتعليمهم شرع الله . ولما كان الشيخ محمد قد أسن وأضعف المرض جسمه فقد وافق ونزل على رغبة الشيخ عساكر أبى كلام.

كان الشيخ محمد قبل مغادرته ديار التعايشة قد تزوج بإحدى بنات أم سرة وتدعى أم نعيم[٦] التى أنجبت من زوج سابق ابناً اسمه السمانى وابنة اسمها عائشة، أُم نعيم[٧]هي والدة الخليفة عبد الله الذى ولد عام ١٨٤١م[٨]ووالدة هارون وحليمة ، وقد أنجب الشيخ محمد من زيجاته المتعددة أربعة أولاد وبنتاً يعقوب وعبدالله ويوسف وهارون وابنته حليمة التي تزوجها فيما بعد الخليفة على ود حلو.

أشرك الشيخ محمد أبناءه الكبار فى جميع أعماله حيث أسند إلى عبد الله كل ما يتعلق بالشؤون الخارجية للخلاوى مثل زيارة الخلاوى الأخرى ولقاء الوفود والقيام بالاتصالات إما بالكتابة أو بالمشافهة مع زعماء العشائر والطرق الأخرى ومع ممثلى الحكومة كذلك ، كما إنه كان يقوم بفض النزاعات والخلافات التي تنشب من آن لآخر بين الجيران «فى الخلاوى»، وأما يعقوب فقد أسندت إليه كل شؤون الخلوة الداخلية مثل التدريس وإدارة الخلاوى والمساجد.

توفى الشيخ محمد ودفن بأبى ركبة بعد زمن وجيز من وصوله إلى دار جمع ، وكان يعقوب وعبد الله هما أكبر أبناء الشيخ محمد ، فقد كان من الطبيعي أن يخلفاه على زعامة السجادة السمانية وأن يقوما بتنفيذ رغبة جدهما فى الذهاب إلى الحجاز.

غير أن حادثة فى هذا الوقت أدت إلى تغيير مجرى حياة الخليفة عبد الله وعشيرته تماماً – ونذكّر بأنّ أسلاف الخليفة عبد الله كانوا شيوخاً للطريقة السمانية وقد عملوا على نشرها في دارفور – وذلك أن الشيخ محمد كان قد تلقى قبل وفاته فى أبى ركبة خطاباً من أحد شيوخ الطريقة السمانية فى دار جمع وطلب منه الإذن له بزيارته فى أبى ركبة ، إلا إذا كان

الشيخ محمد يفضل أن يشرفه بزيارته له في الجزيرة أبا وينزل ضيفاً عليه ، غير أن الموت حال دون قيام الشيخ محمد بالرد على طلب محمد أحمد والذى كان مشهوداً له بالورع والزهد فى أنحاء الجزيرة . وفي ذات يوم قال يعقوب لأخيه عبد الله :

– من الأفضل أن تذهب لرؤية هذا الشيخ و أن تعرف ما يريده.

بدأ عبد الله رحلته سائلاً عن محمد أحمد وعن مكان وجوده ، ثم علم أنه ذهب هو وتلاميذه لبناء قبة على قبر شيخه القرشى ود الزين [٩] بمدينة المسلمية ، وحينما وصل عبد الله إلى هناك ورأى المهدى أغمى عليه مرتين ، وعندما عاد إلى وعيه ، حيا محمد أحمد باسم المهدى ، فدهش محمد أحمد وربما ظن أول الأمر أن بالرجل مساً من الجنون ، غير أن عبد الله بادره بقوله:

إنك المهدى المنتظر وسأكون أنا وزيرك ، فقد أطلعنى والدى قبل وفاته على علامات المهدى الذى ننتظره جميعاً وهذه العلامات تنطبق عليك.

أدخل محمد أحمد عبدالله فى زمرة مريديه ثم أصبح هذا الأخير فيما بعد صاحبه، وكاتم سره. تبع عبد الله محمد احمد منذ ذلك اللقاء ولم يفارقه لحظة واحدة واشترك فى كل المعارك التى خاضها المهدى. وفى أبا[١٠] بينما كان أنصار المهدى مسلحين بالعصى والحراب والخناجر يصدون عنه الجنود المسلحين بالبنادق، كان عبد الله يقف الى جانبه ، وطيلة المعركة كان يتخذ من جسده ستاراً يقيه به، ويحرك سيفه يميناً ويساراً مبعداً عنه الأعداء.

كان عبد الله منذ مطلع صباه ملماً بكل فنون القتال سواءً باليد أو السيف أو القوس أو الحربة وعرف بين أهله محارباً لايشق له غبار وصياداً ماهراً . وأثناء المعارك كان عبد الله يصد الهجمات عن المهدى بجسده. وعندما أصيب المهدى بطلق نارى فى كتفه فى إحدى المعارك ، قام عبد الله فى الحال بتغطية الجرح بجلبابه حتى لايعرف أنصار المهدى خبر إصابته فتنهار حماسة القتال فيهم. ثم ضمد جرح المهدى وواصل القتال حتى تم النصر للمهدى وأصحابه فى المعركة حيث تفوق الايمان على السلاح، كما قال الله سبحانه وتعالى (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين)[١١] . قام المهدى بعد ذلك بدفن الشهداء من أصحابه ثم قرر الهجرة الى جبل قدير [١٢] بجبال النوبة.

كانت عائلة الخليفة عبد الله قد بقيت بأبى ركبة حيث ترك زوجته زينب بنت الأرباب والتى كانت قد أنجبت ابنه الثانى يحيى فى تلك الأثناء وكان ابنه الأكبر قد رأى النور قبل

مغادرته دار التعايشة بزمن وجيز، أما إخوته وأقاربه ومريدوه ووالده فقد أقاموا جميعاً في دار جمع، ولما علموا بنبأ النصر فى أبا وأن المهدى فى طريقه الى جبل قدير، غادروا جميعاً دار جمع ووصلوا الى جبل أبى وتد فى منطقة تقلى حيث بايعوا المهدى وتبعوه ،[١٣] وظلوا مخلصين له حتى الموت، ولم يخامرهم الشك لحظة واحدة فى أنه المهدى المنتظر.

بدأ المهدى تنظيم حكومته فى قدير فمنح كل واحد من أصحابه الرتبة والمكانة التى كانت للواحد من الصحابة بالنسبة للنبى (ص) فقد أطلق على عبد الله الذى كان أول من آمن به وأحبه حباً صادقاً عميقاً لقب خليفة الصديق، فقد كان بالنسبة له كأبى بكر الصديق من النبى (ص)، اذ إنه كان أول من آمن بالرسالة المحمدية والإسراء من مكة الى بيت المقدس ثم المعراج الى السموات السبع، لذا فقد لقب بالصديق ذاك اللقب الذى ناداه به الرسول (ص).

ولتعميق روابط المحبة التى تربط بين المهدى والخليفة قام المهدى أثناء حصار الخرطوم بتزويج إحدى بناته واسمها أم كلثوم [١٤] لعبد الله. غير أن الخليفة لم يمكث معها طويلاً فقد طلقها، ويعزى ذلك الى أنها كانت تلقى أذناً صاغية للشائعات التى كانت تلحق بابن الخليفة شيخ الدين وتقوم بنقلها للخليفة بحسن نية، وقالت له فى إحدى المرات :

- إن ابنك شيخ الدين قتل إحدى خادماته، فكيف تترك هذا القاتل حراً دون عقاب؟.

نادى الخليفة ابنه ثم قال له:

- لماذا قتلت خادمتك فلانة؟ ماذا فعلت حتى تستحق الموت ؟.

إلا أن شيخ الدين هتف قائلاً :

- أنا لم أقتلها لقد قمت بجلدها لأنها خرجت الى الفناء لتشاهد الرجال المتوجهين الى العرضة، وأنت منعت ذلك وحين رأيتها تفعل ذلك قمت بجلدها بسوطى .

وكان شيخ الدين قد استعمل كلمة (كتلت) أى (قتلت) التي تعنى فى لهجة التعايشة الجلد بالسوط.

فغلى الدم فى عروق الخليفة عبد الله على زوجته وطلقها فى الحال ثم تزوج بأخرى من بنات المهدى وتدعى مريم[١٥] غير انه طلقها قبل الدخول عليها. وبناء على نصائح أقاربه وبعض الأشراف المخلصين له قام برد أم كلثوم التى أنجبت له ثلاثة أولاد وبنتاً.

ولما علمت أم كلثوم بمقتل زوجها في أم دبيكرات، أخذت سيفاً وامتطت صهوة جواد وطلبت أن يدلوها على من قام بقتله وحينما وصلت الى ونجت حاولت أن تضربه غير أن

الجنود أمسكوا بها ، فقال ونجت:
– اتركوها فإن ابنة المهدى وزوجة رجل مثل الخليفة عبد الله لابد أن يكون رد فعلها هكذا.[١٦]

بعد وفاة محمد شقيق المهدى وقائد الراية البيضاء، وكان قد قتل منذ الهجوم الأول على الأبيض سنة ١٨٨٢م، أسندت القيادة العامة لجيوش المهدية إلى الخليفة عبد الله. ومنذ ذلك الحين أصبحت الراية البيضاء رمز القيادة، تسير فى مقدمة ركبه، ثم أعطاه المهدى فوق ذلك علامة مميزة وهى سن الفيل (ام بايا) التى كان صوتها يعلن للناس وجود الخليفة بينهم.

غير أن هذا أوغر صدور أقارب المهدى الذين يلقبون بالأشراف فغاروا من الخليفة عبد الله وحاولوا التأثير على المهدى وإثناءه عن ميله الى عبد الله، إذ ساءتهم المكانة التى كان يتمتع بها الخليفة لدى المهدى ، حيث قال شقيقه محمد:

– دع عبد الله وأعط خلافة أبى بكر لأحد أقاربك.

فانتهره المهدى قائلاً :

إن البت فى مكانة الخليفة عبد الله أمر لايد لى فيه ، إنه شأن إلهى .

وعند وفاة محمد عند أسوار الأبيض، حضر المهدى ليصلى على جنازته وجنائز أولئك الذين استشهدوا معه، فرأى أرواحهم وهى تصعد ما عدا روح محمد التى أبت أن تفارق جسده، فدعا المهدى عبد الله وطلب منه ترديد عبارة (إنى أعفو عنك) فسأله عبد الله:

لماذا؟

فكرر المهدى أمره قائلاً :

قل انى أعفو عنك

فقرأ الخليفة عبد الله الفاتحة وقال:

(إنى أعفو عنك يا محمد عبد الله) .

وفى الحال صعدت الروح إلى بارئها .[١٧]

بعد سقوط الأبيض نشب خلاف حاد بين أحد شيوخ السمانية بكردفان ويدعى الشيخ محمد المنا اسماعيل [١٨] والخليفة عبد الله. وكانت تربط شيخ المنا علاقة نسب وصداقة قديمة بالمهدى. ومن هذا المنطلق فقد طالب بلقب أبى بكر الصديق ومكانته حتى إن بعض أتباعه أطلقوا عليه لقب (أبى البتول) تيمناً بلقب أبى بكر الذى كانت ابنته السيدة عائشة هى الوحيدة التى تزوجها النبى (ص) قبل سن البلوغ، فقام أقرباء الخليفة عبد الله بالتحرش بأقرباء

شيخ المنا ، ثم نشب شجار بين الطرفين فأصيب أحد أبناء الشيخ المنا بجروح، فقام شيخ المنا بتقديم شكوى إلى المهدى ووبخ الخليفة عبد الله أمام الجميع وقد حدث قبل هذا، وفى أثناء حصار الأبيض أن قامت جماعة شيخ المنا بنهب المنازل التى تركها أصحابها وانضموا لمعسكر المهدى. فأنب الخليفة عبد الله شيخ المنا ومنع أصحابه من النهب ومن الاحتفاظ بالغنائم وبعد سقوط المدينة قامت هذه الجماعة نفسها بالاستيلاء على الغنائم قبل توزيعها فوبخهم الخليفة توبيخاً شديداً وأجبرهم على ردها، فثار الشيخ المنا على الخليفة عبد الله وأهانه إهانة بالغة.

ونسبة لتأزم الوضع، خاصة بعد الوقائع التى ذكرناها اتخذ المهدى قراراً واضحاً حيث أعلن أمام الجميع:

(إن الخليفة عبد الله هو منى وأنا منه، وقد أشار اليه سيد الوجود صلى الله عليه وسلم فتأدبوا معه كتأدبكم معى. وسلموا له ظاهراً وباطناً كتسليمكم لى وصدقوه فى قوله ولاتنقدوه فى فعله، فجميع ما يفعله بأمر من النبى صلي الله عليه وسلم أو بإذن منى لامجرد اجتهاد منه، ولا هو عن هوى بل هو نائب عنه فى تنفيذ أمره صلى الله عليه وسلم والقضاء بإشارته فإن فعله بكم وحكمه فيكم بحسب ذلك، اعلموا أن جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب لأنه أوتى الحكمة وفصل الخطاب ولو كان حكمه بقتل نفس منكم أو سلب أموالكم، فلا تعترضوا عليه فقدحكم عليكم بذلك ليطهركم ويزكيكم من خبائث الدنيا لتصفى قلوبكم، وتقبلوا الى ربكم. ومن تكلم في حقه ولو بالكلام النفسى فقد خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين ويخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله ، لأنه الخليفة الصديق الذى قال الله فى حقه: (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا).

فمن كان منكم مؤمناً بالله واليوم الآخر ومصدقاً بمهديتى فليسلم للخليفة عبد الله ظاهراً وباطناً . واذا رأيتم منه أمراً مخالفاً فى الظاهر فاحملوه على التفويض بعلم الله والتأويل الحسن واعتبروا يا أولى الأبصار بقصة موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام حكاها الله فى كتابه العزيز كحكم داؤود وسليمان عليهما الصلاة والسلام لتسلموا من الشكوك والأوهام، إن الخليفة هو قائد المسلمين وخليفته النائب فى جميع أمور الدين وإياكم والوسوسة فى حقه وظن السوء وعدم الامتثال اليه فى قوله والمشاجرة له أو لأحكامه والخلاف والحسد).(١٩)

بهذه الكلمات أوضح المهدى بجلاء المكانة التى يتمتع بها الخليفة عبد الله فى المهدية ، إذ إنه لا لأحد أن يخرج على سلطة الخليفة عبد الله خوفاً من خسران الدنيا ولعنة الآخرة، وقد حكمت هذه الأقوال كل حياة الخليفة وأبانت أفعاله.

وفى شيكان كان الخليفة [٢٠] بوصفه القائد العام لجيوش المهدية يرسم لكل مكانه ويوجه الهجوم الذى كان يقوده كل من عبد الرحمن النجومى وحمدان أبوعنجة .

أما فى الرهد فقد كان بجانب المهدى يقف على تنظيم الجيوش المعدة للزحف للخرطوم. وبعد أن تابع الوفود المهدى كان الخليفة ينهض باستقبالها أيضاً . كما كان يقوم بضم الأسرى الى الجيش أو الى خدمة الرايات فى الأعمال الحسابية والكتابية، بالاضافة الى أن جل اهتمامه وعنايته كان موجهاً الى المسائل الإدارية المتشابكة التى يزيد من تعقيدها وجود جيش فى حالة حرب وفى صحبته أسر المقاتلين وعبيدهم وخدمهم. فقد كان للخليفة حضور دائم في كل المشاكل والنزاعات حيث يستمع الى كل فرد ويعطى كل ذى حق حقه.

كان جم النشاط، دائب الحركة. لايتذوق طعماً للراحة وقد كان لديه حصان مسرج خارج خيمته على الدوام. كان الخليفة آنذاك بادى النحول، غير أن نسيجاً من اللحم بدأ يظهر على جسمه النحيل فيما بعد ولعل ذلك يعزى الى حياة الاستقرار التي عاشها عقب توليه الحكم. وقلة حركته بسبب المرض.

كان طويلاً متماسك الجسم، متناسق الأعضاء يعرج قليلاً فى مشيته وذلك من جراء سقوطه من على ظهر جواده فى مرة من المرات ، ولم تؤد آثار الجدرى الذى أصابه فى طفولته والذي ترك آثاراً واضحة على وجهه لطمس وسامته، فقدكان أقنى الأنف، عالى الجبهة ضيقها، ذا سحنة سمراء نحاسية، له شارب ولحية دائرية، قليلة الشعر، شديد السواد كان خفيف شعر الرأس وقد عجلت حوادث الدهر وصروفه بزحف الشيب على رأسه ولحيته قبل الأوان.

كان حلو المعشر، دمث الأخلاق. غير أنه كان شديد القسوة على نفسه وعلى من يحبهم طالما كان ذلك فى صالحهم، كانت أقواله وأفعاله تنبعث من إيمانه العميق وإخلاصه الشديد، ولعل هذا عجّل بنهايته، اذ إن الإيمان سلاح ذو حدين فهو يلهم ويؤدى الى صنع المعجزات غير أنه يمكن أن يعمى صاحبه ويمنعه من سماع النصيحة ومن الاستجابة لصوت العقل.

صحب الخليفة عبد الله المهدى فى زحفه نحو الخرطوم حيث عسكر الجند فى أبى سعد غربى الخرطوم وجنوبى أم درمان ، فقامت جيوش الراية الزرقاء وخاصة جنود أبى عنجة بمحاصرة قلعة أم درمان وكان الخليفة عبد الله يقوم بالطواف عليها صباحاً ومساءً ويحث الرجال على القتال فى سبيل الله ونيل الشهادة فى الآخرة.

وقف الخليفة بعد سقوط الخرطوم على تنفيذ أوامر المهدى الخاصة بسلامة المواطنين ومعاقبة كل من تسول له نفسه خرق هذه الأوامر عقاباً شديداً حيث أقام الخليفة لفترة قصيرة فى قصر الحاكم العام غير أنه سرعان ما تركه بعد اختيار المهدى لأم درمان حيث بنى داره بالقرب من دار المهدى.

وحينما مرض المهدى فى بداية رمضان من عام ١٣٠٢هـ الموافق يونيو ١٨٨٥م، أناب عنه الخليفة فى إمامة الناس للصلاة وذلك يعنى بوضوح إختياره إياه خليفة له. وفى الليلة السابقة لموته رأى المهدى النبى (ص) فى المنام وأنبأه بقرب موته وسأله عمن اختاره خليفة له، فأخبره المهدى بأنه اختار عبد الله خليفة له، وفى صباح اليوم التالى أخبر المهدى الحضور بأمر هذه الحضرة ثم نطق بالشهادة وأسلم الروح إلى بارئها .[٢١]

ولما أصبح الخليفة إماماً لدولة المهدية فى أمور الدين والدنيا جاء الذين يؤمنون بأن الدعوة المهدية حق وأن الخليفة عبد الله هو خليفة المهدى وأدوا له البيعة ، أما الباقون وعلى رأسهم أقارب المهدى فقد تآمروا عليه وحاولوا قتله، غير أن الخليفة أحبط مؤامرتهم. ولكى لايؤخذ على حين غرة بدأ الخليفة ضرب خصومه دون رحمة.

ولما كان الخليفة شديد الإيمان بأقوال المهدى، فقد كانت الثورة على حكمه تعنى بالنسبة له الخروج عن طاعة الله، وعصيان أوامره، وعدم طاعته كان يعني الخروج على أوامر النبى (ص) ونواهيه، وبما أنه كان خليفة المهدى الذي كان هو بدوره خليفة رسول الله (ص) والذى يمثل لكل مؤمن صادق انبلاج النور الربانى فإن ذلك النور قد انتقل الى المهدى الذى نقله بدوره إلى خليفته عبد الله، كما إن المهدى أعلن على أصحابه أن عبد الله سيكون مهدياً آخر الزمان عند أهل الباطن.[٢٢]

هذا وقد كان على الخليفة عبد الله أن يشن الحرب طيلة فترة خلافته على مدعى النبوة الذين دأبوا على الظهور فى الشرق والغرب ، تاره بأسم نبى الله عيسى وتارة باسم المهدى المنتظر. وكان بعضهم يطمع فى خلافة عثمان بن عفان التى كان المهدى قد منحها لمحمد السنوسى ولكنه رفضها.

تمكن الخليفة من القضاء على تلك الدعاوى الباطلة وانتزاعها من نفوس أولئك الذين اتبعوها ، ولكنها أسالت كثيراً من الدماء وكانت تهديداً لدعوة المهدية نفسها فى وقت من الأوقات.ومن ناحية أخرى فقد كان على الخليفة عبد الله أن يواجه عدداً من المعارضين السياسيين داخل الدولة المهدية وخارجها.

كان الأشراف يعتبرون الخليفة عبد الله مختلساً للسلطة وقد أظهروا عداءهم له من قبل، إبان حياة المهدى، إذ كانوا يرون أن خلافة المهدى من حقهم وكان يجب أن تؤول للخليفة محمد شريف ابن عم المهدى وصهره، وفى حالة عدم حدوث ذلك فإلى أحد أقارب المهدى وليس الى غريب وفد من الغرب.

إلا أنهم بايعوا الخليفة عبد الله على مضض، فقد كانت تنقصهم القوة إذ كانت جيوش الراية الحمراء، راية الخليفة شريف، مفرقة فى أنحاء البلاد بقيادة أقارب المهدى. بينما كانت الراية الزرقاء بكاملها فى أم درمان باستثناء قوات أبى عنجة التي أرسلها المهدى فى اليوم التالى لفتح الخرطوم الى جبال النوبة.

كان الخليفة علي ودحلو أول من أقر للخليفة عبد الله بالخلافة وبايعه، إلا أن الأشراف حاولوا زرع الشقاق فى صفوف الأنصار وسعوا إلى الحصول على الإقرار لهم بالخلافة، وبعد دفن المهدى جاء الأمير يعقوب الذى لم يكن يثق فى الأشراف، وأحاط نواحى المسجد بقواته، وكان لديه عدد كاف من الرجال والسلاح ، فقد كانت عادته فى المعارك أن يأخذ السلاح والرجال والخيل غنيمة بينما كان الأشراف يبحثون عن المال والنساء.

وفى داخل المسجد تلقى الخليفة البيعة من الجميع:

(بايعنا الله ورسوله ومهديه وبايعنا الخليفة عبد الله على السمع والطاعة والانقياد لحكمه والرّضى بإرادة الله).

وبعد أداء البيعة خاطب الخليفة عبد الله جموع الأنصار بهذه الكلمات:

(أيها الناس اعلموا أن ضعيفكم عندى قوى حتى آخذ الحق من القوى، وقويكم عندى ضعيف حتى آخذ منه الحق للضعيف.)[٢٣]

وعلى الرغم من كل محاولات الصلح التى بذلها الخليفة عبد الله لم يسلم الأشراف أسلحتهم وكانوا ما فتئوا يتآمرون على الخليفة، فقرروا أن يقتلوه فى عام ١٨٨٦م وينصبوا الخليفة شريف بدلاً عنه. غير أن مؤامراتهم كانت قد كشفت، وأرسل الخليفة يونس الدكيم عاملاً على الجزيرة حتى يمنع تمركزهم فيها فقد كان الأشراف ينوون التمركز فى الجزيرة حيث تساندهم معظم القبائل، منتظرين محمد خالد زقل[٢٤] بجيشه من الغرب ثم يسيرون بعدها الى أم درمان ليقتلوا الخليفة عبد الله ويجتمعوا حول الخليفة شريف ليحكموا معه. لكن الخليفة أفشل مخططهم عندما أمر حمدان أبوعنجة – فى جبال النوبة – باعتراض طريق محمد خالد، وأمر فى نفس الوقت بأن توضع أسلحة كلا الأميرين وذخائرهم ورايتيهما لدى

الأمير يعقوب لتحفظ في بيت الأمانة وتخرج منه للعرضة والجهاد.

قام الخليفة علي بتسليم أسلحته وراياته وجيوشه في الحال لذا اضطر الخليفة شريف أن يفعل مثله. ثم أصدر الخليفة أمراً آخر بأن يسلم كل جهادية الرايتين الخضراء والحمراء للأمير يعقوب ليضمهم للراية الزرقاء التي أصبحت بذلك جيش المهدية الأوحد، وأصبحت الرايات الأخرى تقسيمات رمزية موجودة باسمها فقط، ومضى الوقت من غير أن يسلم الأشراف أسلحتهم مخالفين بذلك أمر الخليفة عبد الله واستمرت الشكاوى ضدهم تترى من الأقاليم فكان على الخليفة أن يلجأ إلى الشدة.

كان الأشراف قد تمكنوا من سمّ الخليفة، فأصبح في حالة يرثى لها حيث رقد على عنقريبه (سريره) مغمض العينين وكان يتردد في صدره نفس خافت، ولقد ظن الجميع أنه ميت لا محالة.

وجلس بالقرب منه صهره الخليفة علي وأخوه الأمير يعقوب اللذان أخذا يراقبان نفسه الأخير، وعندما ظنا أنه توفي، أخذ الخليفة علي سيف الخليفة عبد الله الذي كان معلقاً بجوار رأسه ووضعه على ركبتيه مشيراً بذلك إلى أن الخلافة ستؤول إليه، فمد الأمير يعقوب يده في الحال وأخذ السيف ووضعه على ركبتيه هو، ناظراً بتحد إلى الخليفة علي، وفجأة فتح الخليفة عبد الله عينيه ومد يده وأخذ السيف من الأمير يعقوب قائلاً له:

لن يخلفني أحد لان المهدية ستموت بموتي.

ثم قام الخليفة من رقدته تلك بعد أن زالت عنه آثار السم بفضل الله تعالى وهكذا وضح أن أجله لم يحن بعد.(٢٥).

وفي عام ١٨٩١م بدأوا يدبرون مؤامرة أخرى لاغتيال الخليفة عبد الله وتنصيب محمد شريف بدلاً منه، إلا أن الجعلي بدوي ود العريف، وكان أحد المتآمرين، كان قد اعترف بكل شيء للخليفة الذي اتخذ استعداداته في الحال، فأحاط يعقوب ديار الأشراف بجيشه بيد أن الخليفة منعهم من إطلاق النار ومن الهجوم، ولكن الأشراف حاولوا الخروج واصطدموا بجيش الأمير يعقوب وأطلقوا النار، فمرت رصاصة بالقرب من الخليفة، حيث كان يعقد مجلسه، واصطدمت بالحائط وسقطت بجانبه، وعندما ضج الحاضرون، أمرهم الخليفة بهدوء حيث كان يطلب إلى أعضاء مجلسه إيجاد وسيلة للمصالحة ولإعادة الخليفة شريف وأتباعه إلى الطاعة، فندب الخليفة على نفسه للوساطة، وببعض المحاولات انتهى الطرفان إلى الاتفاق

وجاء الأشراف للخليفة عبد الله يبايعونه ويطلبون عفوه، فعفا الخليفة عنهم. وبعد يومين تم اعتقال قادة الأشراف وقدموا للمحاكمة، وصدرت أحكام بالإعدام.

حزّ هذا الأمر في نفس الخليفة شريف فامتنع عن المسجد مما جرّ عليه تهمة الكفر وهي جريمة عقوبتها الإعدام، فقبض عليه وأحضر بين يدى الخليفة عبد الله الذى قدم محضراً قاسياً لكل ما دبره الأشراف ضده منذ وفاة المهدى، ثم ذكر أقوال المهدي ومحاولات الصلح التى قام بها بنفسه، ثم ختم حديثه قائلاً:

– لقد جاءنى المهدى عليه السلام فى حضرة نبوية وأمرنى بضرب هؤلاء الذين ضربتهم. فقلت له:

– إن أهل الظاهر سينكرون على ذلك سيقولون إنه قد عفا عنهم ثم جاء واعتقلهم.

فقال المهدى عليه السلام:

(الحق معك وأهل الباطن معك فاضربهم لأنهم تمردوا عليك فقد عصوا الله وقد حذرتهم من قبل وقلت لهم إن كل من يعصيك فقد عصانى ويكون بهذا قد عصى الله).

فأجهش الخليفة شريف بالبكاء وطلب العفو فقال له الخليفة اذا كانت توبتك صادقة فإنى أعفو عنك فى ما يتعلق بى، ولكن يجب معاقبتك لأنك تغيبت عن صلاة الجمعة، لقد أغواك ابليس وأعماك بوسواسه، ولتطهيرك من هذا الإثم فسأحكم عليك بالسجن لبعض الوقت، فعد لنفسك وتب عن ذنبك علّ الله يغفر لك كما عفوت عنك. (٢٦)

قبل الخليفة شريف بالحكم الذى أصدرته المحكمة وبقى فى السجن حتى عام ١٨٩٦م. وعندما غزا الإنجليز البلاد طلب من الخليفة أن يسمح له ولأقاربه بالجهاد معه فى وجه العدو ، وبقى مع الخليفة حتى كررى ثم فارقه عندما توجه الى كردفان. حيث ذهب هو وأهله إلى الجزيرة واستسلموا هناك. (٢٧)

وكان على الخليفة كذلك أن يواجه تمرد القبائل التى كانت قد أذعنت للمهدى وتبعته بدرجات متفاوتة من الإخلاص ثم ثارت بعد ذلك علناً فى وجه الخليفة، ففى الشرق كانت قبيلتا الشكرية والهبانية وفى الغرب كانت الرزيقات والكبابيش. لذا فقد وجد الخليفة نفسه فى حالة تشبه حالة سيدنا أبى بكر الصديق بعد وفاة الرسول (ص) عندما ووجه بردة القبائل العربية وتمردها على سلطته. وقد أدى ذلك الى تضافر عدة عوامل من بينها الغزوات القبلية وحب الزعامة والتنافس الشخصى، وهنا أيضاً سعى الخليفة للمصالحة كما فعل مع الأشراف، فدعاهم للحضور إليه لتجديد البيعة والاستعداد للجهاد. وأمام رفضهم هاجمهم الخليفة وقتل

زعماءهم وأخذ أموالهم غنيمة ثم عين زعماء منهم موالين له. كما احتفظ ببعضهم رهائن فى أم درمان لكى يضمن ولاء عشائرهم.

ومن ناحية أخري كان تنافس الأمراء داخل الجيش هاجساً كبيراً للخليفة، حيث كان عليه أن يتعامل بحنكة مع أولئك الرجال الذين كانوا قواداً نادرين ومحاربين لايشق لهم غبار، إلا أنهم بشر يغيرون بشدة من بعضهم البعض ويتطلعون للقيادة، فكان الخليفة يدعوهم لتحكيم صوت العقل ويسعى لزرع مشاعر الأخوة فيما بينهم والطاعة لأوامره متسلحاً بتعاليم الدين وبأقوال المهدى، فكان يعظهم باستمرار ويسهر على حفظ النظام فى الدولة المهدية. وعلاوة على كل المؤامرات والمصاعب الداخلية، كان هناك خطر الاعتداءات الخارجية، فمنذ مجيئه كان الإنجليز يهددون البلاد من الشمال بينما كان الأحباش يهددونها من الشرق، كما كان الغرب نفسه فى حالة غليان، فقد ثار النوبة مرة أخرى ثم تبعهم الفور بعد وقت قليل. ولمواجهة هذه التهديدات اضطر الخليفة للاحتفاظ بثلاثة جيوش على هذه الحدود بصفة دائمة، فأخضع الغرب. كما تمكن الأنصار بقيادة أبطال مثل أبى عنجة والزاكى طمل من الانتصار على الأحباش وإقامة نقاط على طول الحدود.

وبعد صد الإنجليز فى الشمال قام الخليفة بإعداد حملة مصر التى انتهت بهزيمة الأنصار فى توشكى عام ١٨٨٩م وتوقف الجهاد لبعض الوقت، فقد كان على الخليفة حماية أراضيه التى أصبحت مهددة بمختلف الأعداء من كل جانب. فالإنجليز والمصريون في الشمال وعلى ساحل البحر الأحمر، والايطاليون على الحدود الحبشية، وفى الجنوب البلجيكيون والفرنسيون . وفى الغرب ثار الفور مرة أخرى مساندة لزعمائهم وهاجموا الأنصار، وكان على الخليفة أن يكون موجوداً فى كل أجزاء البلاد في وقت واحد ليسد جوانب القصور وليشجع الأنصار ويدعوهم للجهاد فى سبيل الله ويحثهم على الالتزام بأداء واجباتهم الدينية.

وقد شهد الأمراء بحدوث كرامات أثناء الحملة على الحبشة فقدسمعوا، وهم فى قلب المعركة، صوت أم بايا مما يعنى أن الخليفة كان بينهم [٢٨]، وهذا يذكرنا بما حدث فى حملة سارية بن زنيم على الفرس عام ٦٤٣، فعندما تشتت شمل المسلمين وأخذوا يولون الأدبار، سمع الجميع صوت عمر بن الخطاب يتردد قائلاً بوضوح (يا سارية الجبل .. يا سارية الجبل) فقاد سارية جيوشه نحو الجبل وبقى هنالك، وقاد المعركة فى اليوم التالى فكان النصر حليفه، وعلم الناس فيما بعد أن اللحظة التى سمعوا فيها صوت عمر بن الخطاب، كان رضى الله عنه

يخطب خطبة الجمعة على جموع المسلمين فى مسجد المدينة، وقال إنه رأى سارية فى رؤية وأن قواته قد كانت قاب قوسين أو أدنى من الهزيمة، وبقى عمر صامتاً بعض الوقت ثم هتف فجأة :

ياسارية الجبل .. يا سارية الجبل، ثم واصل خطبته.(٢٩)

وفى الليلة السابقة لمعركة عطبرة أمر الخليفة الجميع بعد صلاة العشاء أن يستعدوا للعرضة فى صباح اليوم التالى ولم يستثن سوى المرضى. وفى الوقت الذى كان الزاكى طمل يحقق فيه انتصاره الحاسم على الأحباش بالقرب من نهر عطبرة وصوت أم بايا يرن فى الآذان، كان الخليفة عبد الله يستعرض جيشه، وقد كان ذلك يوم الثلاثاء. ولم يحدث قبل هذا اليوم ولابعده، أن تم عرض الجيش فى يوم غير يوم الجمعة.

وقد حدثت كرامة أخرى تم تجسيدها بلوحة فنية (٣٠) فيما بعد، ففى بداية حملة الحبشة كان جيش أبى عنجة يعانى من الجوع ومن العطش بصفة خاصة، فرآهم الخليفة فى منامه وهم فى هذه الحالة، وفى صباح اليوم التالى ارتدى ملابس الحرب وحمل أسلحته وركب جواده وأمر ملازميه بأن يتبعوه ثم اتجه الى النيل ودخله بتصميم. وأبوجوك (٣١) يقود الحصان حتى وسط النهر ومن خلفه الخليفة، جاء الملازمون والأنصار حتى تقدموا داخل النهر، فأخذ الخليفة جرعة ماء ثم استل سيفه ورفعه فى الهواء ثم صاح:

– اشربوا.

فشرب الجميع، وكرر أمره ثلاث مرات ثم التفت إلى جموع الأنصار قائلاً لهم:

إن إخوانكم يعانون من الجوع والعطش على حدود الحبشة فنسأل الله أن يسقيهم ويرويهم.

وبعد ذلك توجه الخليفة إلى منزله وتفرقت الجموع . وقد أكد أبوعنجة هذا الأمر في أحد خطاباته إذ قال إن السحب قد تجمعت في ذلك اليوم فوق الجيش ونزل المطر غزيراً حتى ارتوى الرجال والبهائم وامتلأت الآبار وانحنت الأشجار بفعل المطر فأكل الجنود من ثمارها التى كانت بعيدة عن متناول أيديهم، وعندما اكتفى المحاربون استقامت الأشجار، فنزل أبوعنجة من حصانه وفعل كل الجنود مثله وفى الحال صلى ركعتين شكراً لله على هذه المعجزة. (٣٢) ان مثل هذه الكرامات يمكن أن تفهم فى إطار ذلك المجتمع الذى كان يتفيأ ظلال الإيمان ويتشرب به، وقد كان الخليفة رجلاً مؤمناً بطبيعة الحال مثله فى ذلك مثل الغالبية العظمى للأنصار، فإنهم كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً بأنهم اذا انهزموا فإن الله سينزل

جنداً من السماء لتحارب معهم كما فعل مع نبيه (ص) وصحابته. وكانوا كلهم مقتنعين بأن عزرائيل يحمل راية من نور ويسير أمامهم. لقد كان الإيمان يحركهم نحو النصر ويجعلهم صماً وعمياناً عن كل ما يؤخرهم عن لقاء الله. وفي كررى، كما في أم دبيكرات بعد ذلك، أظهر الأنصار شجاعة تجل عن الوصف ولم يتراجعوا أبداً حتى استشهدوا فى مواقعهم. لقد كانت كررى مثالاً لتلك الشجاعة التى تفوق شجاعة البشر العاديين. وذلك لأنهم كانوا يحاربون لوجهه جلّ وعلا حتى آخر رمق فى حياتهم ليفوزوا بالشهادة أو النصر.

وقد قتل يعقوب كما قتل كل المدافعين عن الراية الزرقاء، لكنها كانت قد ظلت ترفرف لبعض الوقت فوق جبل من الجثث. وامتدت يد فاسقة إليها ولما فشلت فى الإمساك بيدحامل الراية لانتزاعها منه، قامت هذه اليد النجسة بتسديد عدة طعنات لحامل الراية ثم الاستيلاء عليها.

وأمام ذلك الوضع المأساوى المتأزم قرر الخليفة أن يلقى ربه، فألقى نظرة على السهل الكبير الذى كانت تنتشر فيه الجبب البيضاء مختلطة بألوان أزياء العدو كأنها كفن كبير تكسوه الدماء. وبالقرب منه كان الخليفة على ممدداً على عنقريب (سرير خشبى) بسبب جرح فى ساقه، فأخذ الخليفة فروته ليفترشها على الأرض ثم جمعها فجأة وانتصب واقفاً، وصهل جواده (عصار) الذى كان قد أعطاه له المهدى، فداعبه الخليفة، وخوفاً من أن يقع فى يد أحد الكفار قام باطلاق طلقة على رأسه، ثم ركب جمله ونادى امراءه بإشارة من يده وجعل ينتظر الموت، ثم صعد إلى أعلى مكان فى الجبل ليكون هدفاً واضحاً للأعداء الذين صوبوا نيرانهم عليه من كل اتجاه. بقى الخليفة واقفاً فى مكانه إلى أن اندفع نحوه عثمان دقنة وقبض لجام الجمل صارخاً:

– إن هذه ليست نهاية كل شىء.

وتحدث كثيراً عن المرات المتعددة التى أبيد فيها جنوده، وعاد هو وحيداً مثخناً بالجراح ليبدأ جهاده من جديد. وبالتأكيد يتمكن الخليفة من جمع جيش آخر يواصل به الجهاد ضد العدو الغازى.

وواصل قائلاً:

– يوماً ما سيموت كلانا ونحن نحارب على صهوات جيادنا، ولكن ما الفائدة من الجلوس على فروتك وانتظار العدو والموت برصاصة جالساً هكذا. فلنعد إلى أم درمان وصرخ الجميع:

– إلى أم درمان ياخليفة المهدى كى نموت تحت قبة المهدى.[٣٣] .

وهكذا ترك الخليفة قيادة الأنصار الذين ألهمهم الله هذا الرأى، وسار الخليفة حتى دخل قبة المهدى حيث بقى أصحابه بالخارج وهم جالسون على فرواتهم بينما الوقت يمضى والعدو فى أعقابهم. هذا وقد تردد العدو فى دخول المدينة، وبينما الأنصار ينتظرون والخليفة يتأمل، إذا بيد تربت على كتفه، وبصوت يقول:

– ياخليفة المهدى لاتظن أن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً فلا تبكِ أخاك يعقوب ولا ابراهيم الخليل[٣٤] ولا بشارة[٣٥] ولا أياً من الذين سقطوا من أجل كلمة الله، إنهم أحياء عند ربهم يرزقون، ينعمون بما وعدهم الله، قم ياخليفة المهدى فوقت الشهادة لم يحن بعد، وإن رسول الله يأمرك على لسانى أن تقوم معى أنت وأهلك إلى الغرب لتعاود القتال هناك، وسيلحق بك أحمد فضيل، والختيم موسى ينتظرك ومعه جنوده، أسلحتهم كثيرة العدد لم يمسها أحد، ارحل ومعك الذين يستطيعون الرحيل.[٣٦]

رفع الخليفة عينيه فكان المتحدث هو ود البدوى[٣٧]. فنهض الخليفة وصلى للمرة الأخيرة، وخرج مبتسماً للمرة الأولى منذ أن علم بمقتل أخيه يعقوب، فقد كان وجهه مشرقاً بنور داخلى وبصوته الذى عاد قوياً كما كان، ثم دعا الأنصار للهجرة فتبعه الجميع، ما عدا الذين منعتهم جراحهم، أو الذين كان ايمانهم ضعيفاً وكانوا يأملون فى الاستفادة من الأحداث . وفى الطريق لحق به ما تبقى من جيشه الذي كان قد انسحب الى الشمال الغربى. ثم اتجه الى كردفان حيث بقى هناك عاماً آخر حتى جاء أجله فى أم دبيكرات يوم ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩م، وفى الليلة السابقة للمعركة ألقى على أفراد جيشه خطبته الأخيرة ثم أذن لمن يري منهم النكوص عن بيعته وسمح له بمفارقته قبل المعركة لمن أراد ذلك، فلم يتحرك أحد منهم، وظلوا جميعهم بجانبه ليقاتلوا حتى الموت.

وكان الخليفة يقاتل كما اعتاد مستعملاً سيفه، وفى تلك الأثناء أصابته طلقة إلا أنه استمر فى القتال بجرحه حتى رأى أن كل شىء قد انتهى فترجل عن حصانه وافترش فروته متجهاً نحو القبلة، ونادى أهله وأمرهم بأن يفعلوا مثله وينتظروا الموت، فاصطفوا كلهم أمراء ومحاربين للصلاة خلف الخليفة، فعلى يمينه كان رفيق حياته وعونه فى كل الملمات الذى لم يفارقه أبداً، الخليفة على ودحلو، وعلى يساره ابن عمته العزيزة عنده أحمد فضيل، الذى رباه الخليفة وأحبه كحبه أبناءه تماماً، واتجهوا جميعاً نحو القبلة وعندها أمطرهم العدو وابلاً من الرصاص فاستشهدوا جميعهم فى أم دبيكرات التى أصبحت مقبرة ضخمة للأنصار.

فقبض على الذين بقوا أحياء وكانوا جميعهم من الجرحى. ومع ذلك كان العدو يبحث عن جثة الخليفة عبد الله ليتأكد من موته.

فقام أحد الأمراء السابقين وكان قد انضم للأعداء ويسمى عمر الحمرى إلى المكان الذى استشهد فيه الخليفة، وكان المكان مليئاً بالجثث، فأشار عمر الى إحداها قائلاً:

هذه هى جثة الخليفة.

ولدهشة الجميع رفع الخليفة عبد الله رأسه وكأنه قد استيقظ للتو من نومه قائلاً:

– لماذا بعت هذه الدنيا بدينك يا عمر.

وسقط رأسه وصمت الحاضرون وقد جمدتهم المفاجأة، وتمتم أحدهم بقوله:

– ياويلنا لقد حاربنا وقتلنا أولياء الله.

– وصاح عمر :

– ولكنه ميت

فرفع الخليفة رأسه مرة أخرى وقال:

– ان ما قاله صحيح. أما أنت يا عمر فقد بعت بدينك هذه الدنيا، لقد خرجت من الملة منذ هذه الساعة.

ثم سقط (٣٨) رأسه مرة أخرى. بعد ذلك فُحصت جثة الخليفة وتأكدوا من أنه قد مات بالفعل. وقد أصابته طلقتان، واحدة فى جبهته والأخرى فى قلبه.

(١) روى لى هذه القصة السيد محمد داؤود حفيد الخليفة عبد الله. ونجد نفس القصة مع بعض الاختلافات مدونة في مخطوطة الشيخ عبد الوهاب أحمد بن الحاج الأمين الأنصارى: **سيف المجاهدين الحاسم فى أعناق الملحدين**، الجزء الثانى ص ٣٤ والصفحات التالية، دار الوثائق المركزية. الخرطوم المهدية ٦٩/٨.

(٢) تورشين تعنى الثور القوى العنيف وليس الثور القبيح كما قال شقير فى كتاب تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٧٦، ص ٥٠٢.

وعند زيارتى لأبى ركبة فى ديسمبر ١٩٨٦ قال لى عساكر المكى حفيد الشيخ عساكر أبى كلام: إن المقصود ليس تورشين وإنما تورشيل فقد كان الشيخ محمد يقول (أنا تورشيل) أى أننى أنا الذى أحمل الصعاب والأعباء جميعها. راجع أيضاً كتاب زلفو، كررى، الخرطوم، الطبعة الثانية، ١٩٧٨ ص ٩٠.

(٣) أسس محمد بن عبد الكريم السمانى (١٧١٨ - ١٧٧٥) الطريقة السمانية وهى فرع من الطريقة الخلوتية، وقد أدخلها الشيخ أحمد الطيب بن البشير إلى السودان فى نهاية القرن الثامن عشر.

(٤) الجنيد هو جد التعايشة، وكان له ابنان هما عطية وحيماد ، وعطية هو جد البقارة بكل فروعهم: الحمر والرزيقات وبنى هلبة والمسيرية والحوازمة، أما حيماد فهو جد التعايشة والهبانية والأحامدة وأولاد أحمد سليم وسلامات والنجمية.

(٥) التعيش بن حسب الله بن حيماد بن الجنيد واسمه أحمد ولقبه تعيش، ويحكى أنه عندما توفى حسب الله والد أحمد كان جده من جهة أمه يقول له كلما بكى (اسكت تكبر تعيش) فسمى بأحمد تعيش وأصبح اسم القبيلة يرجع لهذا اللقب.

(٦) كان لعلى الكرار ابنان هما محمد والد كل من عبد الله ويعقوب، وأحمد أبناؤه هم محمود وإسماعيل وإبراهيم الخليل وعبد الرحمن وحامد الذى لم يكن له ابن وأما عثمان فقد كان أبناؤه هم عبد الدائم وعمر والد يعقوب، وآدم وهو والد عثمان آدم أمير عمالات الغرب.

(٧) أم نعيم هى ابنة الحسنة ،وأم سرة هم فرع من أولاد جبار، وبقية بطون أولاد جبار هم سرحان وحميدان وحسبة وجيد ومرزوق. وقد تزوج أسلاف الخليفة منذ وصولهم إلى دار التعايشة بنات أولاد جبار فتزوج على الكرار بآمنة سمبل بنت عمرو وليد الأمين العريفى الربيع فرفر من أولاد سرحان، وهى أم محمد تورشين.

(٨) يعتبر تاريخ ميلاد الخليفة عبد الله المتفق عليه بصفة عامة هو عام ١٨٤٦م، أما اذا حسبنا على أن عمر المهدى كان ثمانية وثلاثين عاماً فى عام ١٨٨١م، وأن الخليفة عبد الله يكبره بسنتين أدركنا أن التاريخ الصحيح هو ١٨٤١/١٢٥٨هـ.

(٩) توفى الشيخ القرشى ود الزين فى عام ١٨٧٨م، وقد أعطانا هذا التاريخ ابراهيم الرياض الذى أخذه من الشيخ عبد المحمود نور الدائم ، وقد كان الأخير شاهد عيان، وقد قال إن الشيخ القرشى توفى وعمره ستة وثمانون عاماً، وكان ذلك فى ظهر الجمعة ٢٥ رجب ١٢٩٥هـ/ ٢٥ يوليو ١٨٧٨، أزاهر ، ٣٠٩، وانظر هولت، الدولة المهدية فى السودان ١٨٨١ - ١٨٩٨م، الطبعة الثانية، اكسفورد، ١٩٧٠م، ص ٥٠، حاشية رقم (١).

(١٠) أول معركة للمهدية مع قوات الحكومة فى عام ١٨٨١م.

(١١) سورة البقرة الآية (٢٤٩).

(١٢) يقع جبل قدير، جنوب جبال النوبة، وكان هو مكان هجرة المهدى.

(١٣) نجد في كتاب جهاد فى سبيل الله (أوراق أو دفتر على المهدى)، ص ١٨، أن المهدى قد أقام معسكره فى جبل أبى وتد، وأن خمسة عشر شخصاً قد بايعوه، وأن من بينهم الأمير يعقوب واخوته ومساعد قيدوم وأحمد على وحامد على.

(١٤) أم كلثوم بنت المهدى وابنة خال فاطمة بنت الحاج، كان لديها ثلاثة أبناء وبنت واحدة وأبناؤها هم : محمد الطاهر ومحمد الهادى ومحمد السيد وطاهرة.

(١٥) مريم بنت الإمام المهدى وفاطمة بنت حسين الحجازى.

(١٦) عرفت هذه الرواية من حفيد عدنان محمد السيد خلال زيارتى لأم دبيكرات فى ديسمبر ١٩٨٦م.

(١٧) هذه رواية محمد داؤود.

(١٨) الشيخ المنا اسماعيل من قبيلة المسداب، وهى إحدى بطون الجمع الصغيرة التى عاشت فى كردفان منذ منتصف القرن الثامن عشر، وكان الشيخ المنا مشهوراً بورعه وعلمه، كما كان زميلاً لمحمد أحمد فى خلوة الشيخ محمد شريف نور الدائم، وتبع المهدى منذ ظهور دعوته. كما تزوج المهدى ابنته حواء الجلالة وكانت رايته هي الراية الصفراء، ولذلك كان يطمع فى مكانة عثمان بن عفان التى وعد بها المهدى السنوسى، وقد قُتل لأجل عصيانه أوامر المهدى مع بعض أفراد عائلته فى عام ١٨٨٣م – بولتون (المنا اسماعيل، فقيهاً وأميراً SNR, XVII. II الصفحات ٢٢٩ – ٢٤١.

(١٩) منشورات المهدية، أبوسليم، بيروت ١٩٧٩، ص ٦٦ – ٦٩.

(٢٠) معركة انتصر فيها الأنصار على قوات الحكومة بقيادة حاكم عام السودان آنذاك علاء الدين باشا صدقى والكولونيل الإنجليزى وليم هكس، وذلك فى يوم ٥ نوفمبر ١٨٨٣م.

(٢١) يوسف ميخائيل، تاريخ حياتى، المهدية، ٤/٩/٨؛ ص ٦٨ – ٦٩.

(٢٢) خطاب المهدى إلى فخر الدين بتاريخ ٤ شوال ١٣٠١ ٢٨يوليو ١٨٨٤م منشورات المهدية، ذكر سابقاً، ص ٧٨ – ٧٩.

(٢٣) جهاد ، ص ١١١.

(٢٤) محمد خالد زقل، هو ابن عم المهدى، وكان قد عينه الأخير عاملاً على دارفور ثم تآمر مع الخليفة شريف ضد الخليفة عبد الله، فقبض عليه أبوعنجة فى عام ١٨٨٦م، وأرسله الى أم درمان حيث بقي فى السجن لبعض الوقت ثم عينه الخليفة عاملاً على دنقلا فى عام ١٨٩٠م وعزله بعد ذلك فى عام ١٨٩١، ثم أرسله الى الرجاف لمشاركته فى مؤامرة الأشراف، وبقى هناك حتى عام ١٨٩٧، ثم ذهب بعد ذلك إلى دارفور، وبقى مع السلطان على دينار الذى اتهمه بالتآمر عليه، وقُتل فى عام ١٩٠٣م.

(٢٥) هذه رواية عبد الرحمن الطيب بن الأمير يعقوب حفيد كل من الأمير يعقوب والخليفة عبد الله.

(٢٦) جهاد، ص ١٤٧ – ١٧٥.

(٢٧) انسحب الخليفة شريف وأبناء المهدى بشرى والفاضل الى الشكابة بالجزيرة وهناك اتهموا بالتآمر ضد الإنجليز وأعدموا في يوم ٢٧ أغسطس ١٨٩٩م.

(٢٨) عبد القادر الكردفاني (الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش) MS 139, DURHAM ،طبعة نقدية،محمد ابراهيم أبوسليم، ومحمد سعيد القدال: الحرب الحبشية السودانية ١٨٨٥-١٨٨٨، دارجامعة الخرطوم للنشر،١٩٧٢، ص١٣٨.

(٢٩) تاريخ الطبرى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٩م المجلد الخامس، ص ١٧٩.

(٣٠) توجد هذه اللوحة التى رسمها أحد الإنجليز فى بيت الخليفة، وقد قام عدد من الفنانين السودانيين برسم نسخ منها، وقد ظهر فيها الخليفة عبد الله على ظهر فرسه، وكان ابنه سليمان هو الذى مثل دور والده (لعمل اللوحة) ويزعم البعض أنها تمثل الخليفة عبد الله عندما سمع بسقوط كسلا فى أيدى الإيطاليين، وقد دخل فى النهر واستل سيفه ثم ردد (الله أكبر ثلاث مرات). وقد أكد لنا صحة الرواية الأولى مهدى الطيب الأمير يعقوب حفيد كل من الخليفة والأمير يعقوب.

(٣١) (أبوجوكى) سائس فرس الخليفة عبد الله قتل فى أم دبيكرات.

(٣٢) خطاب حمدان أبى عنجة الي الخليفة عبد الله، بلا تاريخ ولاختم ومن المحتمل أن يكون قد كتب فى جمادى الأولى ١٣٠٥هـ / يناير ١٨٨٨م وهو كتاب لم يكتمل، يصف فيه أبوعنجة المعجزت التى شهدها فى أرض الحبشة المهدية ٢٦/٨.

(٣٣) زلفو، كررى، ص ٥٢٦.

(٣٤) إبراهيم خليل أحمد ابن عم الخليفة وأخو الأمير محمود، كان قائد الجهادية فى كارا، توفى فى كررى ١٨٩٨.

(٣٥) مخطوط، جامعة الخرطوم، ص ٧٦، الجزء ٢، كما روى الحادثة نفسها موسى عرديب، الذى كان شاهد عيان للمهدى الطيب بن الأمير يعقوب. الختيم موسى، أحد أمراء التعايشة، كان من وكلاء عثمان آدم ثم محمود أحمد من بعده، وقاد عدة حملات ضد الفور وضد بحر الغزال. وعهد اليه محمود بحامية الأبيض عندما غادر القائد ولحق بالخليفة بعد كررى، ثم جرح فى أم دبيكرات وأسر وأرسل الى الرشيد حيث بقي هنالك لعدة سنوات ثم أرجع إلى السودان وتوفى قريباً من نيالا عام ١٩١٤م.

(٣٦) رواية سليمان محمد سليمان، سوار من البطولة، الخرطوم، بلا تاريخ، ص ٩٢ - ٩٤.

(٣٧) الشيخ محمد ود البدوى عالم بعلوم الدين والفقه، وهو من الدناقلة، ولد فى الأبيض وتخرج فى الأزهر وصاحب المهدى منذ الأبيض، وقد عينه المهدى قاضياً علي بربر ثم استقر فى أم درمان وأصبح رئيساً لمجلس القضاة ورجال الدين فى أثناء الحكم الثنائى، توفى عام ١٩١١م ومازال الناس يزورون ضريحه.

(٣٨) رواية عبد الرحمن أبى حسين الجيارى، كتاب تاريخ المهدى.

الخليفة على ود حلو

على ودحلو هو ابن شيخ قبيلة دغيم[1]، إحدى قبائل البقارة. تولى أخوه الأكبر موسى زعامة القبيلة عقب وفاة والده، أما على فقد كان مهتماً بالعلم، وقد اشتهر بطريقته المتميزة فى تلاوة القرآن، وبورعه الشديد، وكان تلميذاً للشيخ مضوى[2] الذى زاع صيته فى منطقة العيلفون لتبحره فى علوم القرآن.

طلب الشيخ محمد احمد، الذى زاعت شهرته بين قبائل النيل الأبيض، من الشيخ مضوى أن يرسل له أحد حيرانه (تلاميذه) كي يُدرّس فى خلوته، فأرسل له الشيخ مضوى على ود حلو الذى كان فى الثلاثين من عمره[3]. وعند وصوله إلى أبا، أسس خلوته التى لاتزال آثارها قائمة حتى الآن، ومنذ ذلك الحين لم يفارق على ودحلو الشيخ محمد أحمد، وكان من أوائل المؤمنين به عندما أعلن أنه المهدى المنتظر، كما التفت قبيلة دغيم وحليفتها قبيلة كنانة[4] حول المهدى وآزرتاه، وقام علي بمرافقة المهدى فى رحلته الأولى إلى الأبيض.

كان معظم أصحاب المهدى فى معركة أبا ينتمون لقبيلتى دغيم وكنانة، وقد قاموا جميعاً بمرافقته إلى قدير، وهناك لحقت به إحدى نساء كنانة[5] وأخبرته بأن قوات الحكومة برئاسة راشد بك تستعد للهجوم عليه.

منح المهدى علياً منزلة الخليفة عمر بن الخطاب، ولقب بخليفة الفاروق، وكان يحمل الراية الخضراء التى كانت تنضوى تحت لوائها قبائل دغيم وكنانة بالإضافة إلى قبائل البقارة الصغرى على الحدود بين الجزيرة وكردفان.

أما أخوه موسى الذى كان وكيلاً له، فقد اشتهر بشدة البأس فى القتال وإجادة فنون الحرب، وكان المهدى قد أرسله لمساندة ود النجومى وأبى عنجة اللذين كانا يحاربان فى جبال النوبة.

وعندما جاء الإنجليز لنجدة غردون ووصلوا إلى جكدول، أوكل إليه المهدى أمر قيادة الجيش الذى تصدى لهم فى أبى طليح، وهناك انطلق موسى ودحلو وسط صفوف الأعداء حتى نصب رايته فى وسط جيوشهم، وبدأت مواجهة حامية الوطيس، سقط أثناءها موسى ود

حلو شهيداً، وواصل رفاقه القتال حتى استشهدوا جميعاً، وكانت تلك هى أول هزيمة للأنصار، وقد تركت أثراً سيئاً في نفس المهدى إلا أنه منع الناس من البكاء على شهداء أبى طليح. ولكى يخدع الأعداء المحاصرين، أمر بإطلاق المدفع الوحيد الذى يملكه كعلامة للنصر، وقد كان ذلك نصراً بالفعل لأن الشهادة كانت هى أمنيتهم، فقد استشهد الأمير موسى ورجال رايته وكانوا كلهم من دغيم وكنانة تقريباً، إلا أنهم ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون.

ينتهى نسب الخليفة على ود حلو الى آل البيت، وقد كان ورعاً وحكيماً فى أقواله وأفعاله، كما كان ميالاً الى التصوف، زاهداً فى الدنيا وشؤونها، بيد أنه كان يوليها الاهتمام الذى تستحقه عند الضرورة، فكان يتخذ القرارات اللازمة ويدلى برأيه عندما يطلب منه. وقد كان كبقية أهله مقاتلاً شجاعاً لايشق له غبار، واشتهر كذلك بالكرم وبالسعى لإصلاح ذات البين، وقد كان قوى الإيمان بالمهدى، فكان من أوائل الذين آمنوا بدعوته، ولتقوية أواصر الصداقة بينهما زوجه المهدى بابنته نور الشام، فانجب منها الطيب والصادق وعائشة. وقد ربطته بالخليفة عبد الله كذلك صداقة قوية نشأت فور وصوله إلى الجزيرة أبا، كما إنه تزوج أخت الخليفة حليمة، فأنجبت له موسى ويعقوب، وكانت هى زوجته الأولى.

وقد كان حريصاً طوال حياته، على ملازمة الخليفة عبد الله وخاصة فى صراعه مع الأشراف إذ اتخذ موقفاً مؤيداً لصهره، فأخذ الأشراف عليه ذلك، لكنه كان يرى أن الخليفة عبد الله هو الخليفة المعين من قبل المهدي، ولذا كان من أوائل من المبايعين له، ولم يتراجع قط عن بيعته.

وعندما اندلعت فتنة الأشراف انتدبه الخليفة للوساطة بين الفريقين، فقاد وفدا من كبار رجال المهدية ومن مختلف القبائل للتفاوض مع الخليفة شريف وأنصاره المجتمعين داخل قبة المهدى[٦] .

طلب الخليفة على ود حلو من الأشراف توضيح سبب تمردهم ومعاداتهم للخليفة عبد الله، فرد أحمد محمد الخير[٧] وأحمد سليمان[٨] بقولهما:

– إن السبب المهم هو أن خليفة المهدى قد أخذ منا سلاحنا وراياتنا وجيشنا فقال لهما الخليفة على:

– إنكم أنتم السبب فى ذلك، فإن خليفة المهدى استحسن وضع السلاح والرايات فى صعيد واحد فى بيت الأمانة لحفظها فقط، وأن نأخذها عندما نريد حملها للعرضة أو الهجرة

أو غير ذلك ولما كان يوم الجمعة جئت وأخذت رايتى وأسلحتى حسب الاتفاق السابق ولم تفعلوا أنتم ذلك. وقد تخلف الخليفة شريف ولم يحضر كما حضرتُ بل أرسل محمد أحمد شيخ إدريس [٩] فرفض خليفة المهدى إلا أن يحضر الخليفة شريف لأخذها، ولم تأخذوا فى تلك الجمعة ولا فى التى تلتها، وهذا يعنى أنكم تركتموها باختياركم. وليس هذا هو السبب الذى دعاكم لمخالفة الناس ولمحاربة خليفة المهدى بل بلغنا أنكم قلتم إن المهدى جاء لإحياء الشريعة والعمل بالسنة والكتاب ولكن خليفة المهدى ترك حكم الشريعة وجعلها سلطة فردية وصار يحكم «بالإشارة» بمقتضى مايوحى رأيه، فلذلك أنتم برزتم لمحاربته. فقالا له:

– حقيقة نحن قلنا ذلك لكن الشيء الذى أغضبنا واضطرنا لهذا الموقف هو سلب الرايات والسلاح وتفريق جيوشنا. فأجابهم الخليفة على بقوله:

– أما قولكم إن خليفة المهدى جعلها ملكا.. الخ فنحن وأنتم بايعناه على السمع والطاعة والإنقياد لحكمه وإن هذه مازالت على رقابنا ونحن مدانون له بها وملزمون بالطاعة له. أما أخذ الرايات والسلاح وتوزيع الجيش فأنتم سببه فقد اتفقتم معه على خزنها فى مكان واحد ثم تخليتم عن الاتفاق باختياركم.

واحتد النقاش بين الخليفة على ود حلو والأشراف حتى هدد الأشراف بتحويله إلى قتال، وهنا ملك الخليفة نفسه والتفت إلى الخليفة شريف الذى كان صامتاً تجاه هذه الألفاظ قائلاً له:

– مارأيك في هذا الكلام الذى صدر عن جماعتك. فرد الخليفة شريف بقوله:

– حقيقة إننا وضعنا الرايات والسلاح فى بيت الأمانة باختيارنا وعلى حسب اتفاقنا مع خليفة المهدى وتخلينا عنه باختيارنا لأسباب رأيناها، وتطورت المسألة حتى فات الفوات ولافائدة من ذكرها الآن. وحيث إنكم جئتم بقصد عمل الصلح بيننا وحقن دماء المسلمين، فأنا لا أمانع في ذلك بل أوافقكم علي شرط ألا تمسوا الناس الذين قاموا معى فى هذا الأمر بسوء ولاتؤاخذوهم فيما مضى.

– فرد عليه الخليفة على الذي خوله الخليفة عبد الله كل السلطات:

– أعدكم بأن لايحاسب أحد على ما حدث وأن الخليفة عبد الله قد عفا عما سلف.

بعد ذلك أبرم الطرفان معاهدة سلام. وإظهاراً لحسن النوايا وتدعيماً لهذه المعاهدة قام الطرفان بزيارة قبة المهدى حيث جددوا البيعة وهكذا غلب السلام [١٠].

بعد أيام من هذه الاتفاقية قام الخليفة عبد الله باعتقال ومحاكمة قادة المؤامرة وكان الخليفة علي، رئيس المحكمة، على يقين بأن الخليفة عبد الله فعل ذلك إجابة لأمر المهدى فى حضرة أمره فيها بمحاكمة العصيان، وذلك بعد أن حدد له أسماءهم [١١].

وترأس الخليفة على كذلك المحكمة التى جلست لمحاكمة الخليفة شريف، ووجه التهم إليه، وقد كان يهدىء من غضب الخليفة شريف وألفاظه الجارحة قائلاً له:

– يا خليفة المهدى اصبر، أنت رجل عاقل وخير لك أن تمتثل أمر خليفة المهدى الذى حكم به القضاة وأهل الشورى. لقد عفا عنك خليفة المهدى بصدق ولايحمل عليك أى حقد فى تمردك عليه، ولكنك أخطأت فى حق الله بتخليك عن صلاة الجمعة لقد أنجتك توبتك من عقوبة الإعدام إلا أنك تستحق العقاب، فاقبله بلا احتجاج، لأنه سيكون تطهيراً لك، أرجو أن تسلمنى سيفك. فاستجاب له الخليفة شريف مسلماً سيفه له لأنه كان يحبه حباً شديداً [١٢].

بعد هذا عاد الخليفة إلى داره كئيباً حزيناً من الصراعات والانشقاقات بين أصحاب المهدى، ولكى ينسى هذا اعتاد أن يشغل نفسه بتلاوة القرآن ودراسته، فكانت نفسه تهدأ شيئاً فشيئا .

كانت للخليفة على خلوة مجاورة لمنزله بجوار المسجد، وكان مسئولاً عنها أحد الفقهاء، وكان الخليفة على يحرص دائماً على تفقد أحوال الطلاب ومستوياتهم. وكان بين طلاب هذه الخلوة أبناؤه وأبناء المهدى والخليفة والأمير يعقوب. وكان شيخ الدين بن الخليفة يأتى إلى الخلوة برفقة عبيده حيث يحمل أحدهم دواته وآخر لوحه وثالث يحمل فروته فيجلس بجوار زملائه إلا أن الشيخ لم يكن يعيره اهتماماً، واستمر الحال هكذا حتى جاء يوم سأل فيه الخليفة عبد الله ابنه عما حفظ، فرد شيخ الدين بأن الشيخ لايتحدث إليه ولايوجهه لما يجب أن يحفظه ولايوبخه بل يتجاهله تجاهلاً تاماً، فاندهش الخليفة عبد الله لما سمعه من ابنه وقرر التأكد من ذلك بنفسه. فذهب فى أحد الأيام إلى الخلوة وسأل الشيخ عن سبب تجاهله لابنه فرد الشيخ قائلا:

– ياخليفة المهدى إن ابنك عثمان لايأتى إلى الخلوة طالباً بل يأتى سيداً حيث يحمل له عبيده كل حاجاته ويعاملنا كأنما نحن عبيد وهو سيد وهذا يخالف روح الإسلام وروح الخلوة وهنا التفت الخليفة إلى ابنه وقال له:

– لقد سمعت ما قاله شيخك، وعليك منذ هذه اللحظة أن تجلس مع زملائك هؤلاء.

ثم أشار إلى العبيد قائلاً:

– أما هؤلاء، فعليهم أن يواصلوا معك حفظ القرآن علي يدى هذا الشيخ، وعلى كل منكم أن يحمل حاجه بنفسه فكلكم عبيد الله ولافضل لأحد على آخر إلا بالتقوى (١٣).

ولقد كانت تصرفات شيخ الدين غير اللائقة تجاه الخليفة على وأعضاء مجلس الخليفة تضايق الخليفة على إلا أنه كان يخفى ذلك حتى لايغضب الخليفة عبد الله، وفى المقابل كان التوقير والاحترام الذى يجده من الأمير يعقوب ينسيه تصرفات شيخ الدين.

لم يحدث أن تخلف الخليفة عن عرضة الجمعة. وكان دائماً هو ورجال رايته متأهبين للدفاع عن الخليفة عبد الله. وفى شهر رمضان كان يؤم المصلين فى صلاة التراويح وكذلك فى صلاة الجمعة فى حالة غياب الخليفة عبد الله.

كان الخليفة على على رأس الراية الخضراء في معركة كررى، وأصيب خلالها فى فخذه الأيمن فسال دمه غزيراً ولكنه قال للذين حاولوا إبعاده من ساحة القتال:

إنى أريد أن أرى الخليفة عبد الله.

وعندما التفت لمكان الخليفة عبد الله أصابته رصاصة أخرى فى نفس الساق المصابة فسقط وحمل إلى جانب الخليفة.

وكانت إصابته خطيرة مما اضطره لأن يحمل طوال الطريق إلى غرب السودان، وقد لاحظ قلة رجال دغيم المصاحبين للخليفة فسألهم:

(أين فلان وفلان؟) فقالوا:

– انهم تركوا الجيش بعد كررى برفقة أخيك الإمام وعادوا إلى ديارهم، ونحن أيضاً ننوى أن نفعل ذلك.

هنا هب الخليفة على واقفاً رغم إصابته واستل سيفه صائحاً:

«هل فقدتم إيمانكم يا رجال دغيم. اذهبوا فى الحال وجددوا البيعة لخليفة المهدى حتى الموت، لقد ضاعت بيعتكم السابقة بسبب ضعفكم». ونادى أحد التعايشة من أولاد عباس ويدعى المهدى شرف الدين وقال له:

– الحق بأخى الإمام واحضره حياً أو ميتاً هو ومن معه، وإذا رفض الرجوع، اقطع رأسه واحضره لى.

انطلق المهدى شرف الدين برفقة مجموعة من الرجال وعند وصوله لموقع الإمام ود حلو، قال له إن أخاه يطلب منه اللحاق فوراً لخليفة المهدى، فرفض الإمام. وهنا دارت

معركة بين مؤيديه ورجال المهدى شرف الدين الذى أطلق رصاصة أصابت ساق الإمام فسقط على الأرض وعندما اقترب المهدى منه، قال له:

- تب ورافقنى إلى حيث خليفة المهدى فرد الإمام:

- بعد كل مافعلته لا أستطيع النظر فى وجه خليفة المهدى فافعل بى ما أمرك به أخى.

فاستل المهدى شرف الدين سكينه وقطع رأس الإمام وحمله إلى الخليفة علي كما أمر.

وقال رجال من دغيم:

علينا أن نرجع إلى ديارنا، إن الخليفة عبد الله سيذهب إلى دار التعايشة، فماذا سنفعل نحن هناك؟.

فقال لهم الخليفة:

- إن كل من يهجر الخليفة فإنما يهجر الله، وهنا ندم الجميع على ماقالوه وتبعوا الخليفة[١٤].

عندما اقتربوا من أم دبيكرات اقترب الخليفة علي من الخليفة عبد الله وقال له:

«أتذكر يا خليفة المهدى، ما قاله المهدى عليه السلام عند مرورنا بهذا المكان ونحن قادمون من الأبيض، فقد قال لنا نحن الاثنين إننا سنرقد فى هذا المكان»[١٥]

فقرر الخليفة أن تكون المعركة فى سهل أم دبيكرات فى منطقة جديدة.

وعندما رأى الخليفة أنه قد خسر المعركة، قام بفرش فروته على الأرض وجلس عليها وجاء الخليفة على، الذي لم يتوقف لحظة عن القتال، وجلس على يمينه وعندما رأى الأعداء يقتربون أراد مواصلة القتال واستل سيفه محاولاً القيام إلا أن الخليفة عبد الله وضع يده علي ساعد الخليفة على قائلاً له:

اجلس مكانك، وكانت هذه آخر كلماته.[١٦]

وجد جثمان الخليفة علي ممزقاً بالطلقات بجوار جثمان الخليفة عبد الله، وكما قال المهدى فقد استراحا بأم دبيكرات حيث دفنا ولاتزال آثار فروتيهما موجودة حتى الآن فى نفس الموقع الذى استشهدا فيه، لقد رحلوا عن الدنيا إلا أن أرواحهم الطاهرة لاتزال حية بجوار ربهم تتطلع للقيام من أجل القتال مجدداً فى سبيل الله.

(١) دغيم إحدى قبائل البقارة التى تعيش علي النيل الأبيض بالقرب من الجزيرة أبا، انضموا للمهدى منذ عام ١٨٨١م وحاربوا معه في معركة أبى طليح عام ١٨٨٥م تحت قيادة زعيمهم موسى ود حلو، واشتهر رجال دغيم بالفروسية.

(٢) الشيخ مضوى عبد الرحمن من أصل محسى، انضم للمهدية من أجل المنفعة الشخصية بعد سقوط الأبيض عام ١٨٨٣م وبعد هزيمة المهدية عينته سلطات الحكومة المصرية الإنجليزية قاضياً بدنقلا، وتوفى بالخرطوم عام ١٨٩٩م ودفن فى العيلفون.

(٣) أمدنى بهذه المعلومات شيخ كبير خلال زيارتى للجزيرة أبا وطلب منى عدم ذكر اسمه.

(٤) إحدى قبائل البقارة وتعيش على ضفتى النيل الأزرق شمال سنجة وسنار، وفى شرق كردفان، ويرجعون نسبهم الى قبيلة كنانة العربية، وقد آمنوا بالمهدى منذ بداية دعوته عام ١٨٨١م وانضموا مع قبيلة دغيم تحت الراية الخضراء بقيادة الخليفة علي ود حلو.

(٥) رابحة الكنانية.

(٦) جهاد، ص ١٦٧، والصفحات التالية.

(٧) أحمد محمد الخير بن محمد الخير عبد الله الخوجلى من أمراء الراية الحمراء.

(٨) أحمد سليمان من أوائل المؤمنين بالمهدى وقد عينه المهدى فى قدير أميناً لبيت المال، بصفة غير رسمية، ثم عين بصفة رسمية بعد سقوط الأبيض عام ١٨٨٣م، وكان هناك عداء خفى بينه وبين الخليفة عبد الله، فعزله الخليفة بعد وفاة المهدى، ونفذ فيه حكم الإعدام بفشودة بعد مؤامرة الأشراف إذ كان أحد المشاركين فيها.

(٩) محمد أحمد شيخ ادريس – أمير من أشراف الشرق.

(١٠) المصدر السابق.

(١١) نعوم شقير، د. س ص ١١٦٧ – ١١٦٨.

(١٢) جهاد ص ١٧٢ – ١٧٥.

(١٣) رواها لي مهدى الطيب بن الأمير يعقوب.

(١٤) المصدر السابق.

(١٥) روى لى هذه الأقوال الشيخ عباس أحمد عمر في الجزيرة أبا فى ديسمبر ١٩٨٦م، وقد سمعها هو من شاهد عيان.

(١٦) زلفو، ذكر سابقاً، ص ٥٦٩.

الأمير يعقوب

في كررى، عند سفح جبل سرغام،[1] نحو الشمال قليلاً يوجد قبران متباعدان، يحيط كلاً منهما سياج من الحديد، أولهما قبر الأمير يعقوب، أخو الخليفة عبد الله والآخر قبر صهره، محمد بن المهدى، يرقد كلاهما فى المكان الذى قاتل فيه لنصرة دعوة الله، ونال فيه شرف الشهادة.

تحيط القدسية بسهل كررى، فهناك يرقد جند الله الذين روت دماؤهم الطاهرة ثرى تلك الأرض، واختلطت عظامهم بذرات ترابها، عند جبل سرغام الذى شهد آخر معارك الراية الزرقاء بقيادة الأمير يعقوب فى ٥ سبتمبر ١٨٩٨م، ويتكون هذا الجبل من تلين أو ثلاثة، أكبرهما مستطيل الشكل ويميل للانخفاض، أما الآخران فيتكونان من كتل متفرقة، وحول الجبل تتبعثر الحجارة والصخور على الرمال التى تغطى الأفق. وتتناثر هنا وهناك بعض الشجيرات الهزيلات، وربما يسمع فى المساء عند هذا السهل صليل السيوف وقعقعة الأسنة وصوت تصادم الدروع وطلقات البنادق، مصحوبة بصيحات التكبير التى تدوى فى أرجاء المكان.

فلنتوقف هنيهة، ولنتأمل. إن هؤلاء الذين يرقدون تحت أقدامنا قد ماتوا لكى تبقى كلمة الله، ولكى يقفوا سداً فى وجه العدو الذى أراد دخول مدينتهم، إنهم أموات بيد أن أرواحهم حية. وهم مستعدون للقيام من أجل القتال مرة أخرى، متمثلين بقول الرسول (ﷺ) : ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع الى الدنيا وما له على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة[2].

والأمير يعقوب هو أكبر أبناء الشيخ محمد بن على الكرار، ووالدته معروفة بنت المهدى من أولاد أم سرة من الجبارات، إحدى بطون التعايشة، وقد ولد فى حوالى ١٨٤٠م، وتولى أمر إدارة خلوة والده منذ فجر شبابه.

عندما وصل الشيخ محمد إلى دار جمع، التقى بالشيخ عساكر أبى كلام بأم حجر غرب تندلتى، وطلب منه الشيخ عساكر أن يبقى معهم لكى يُعلّم أهله القرآن ويُدرّسهم تعاليم الإسلام، فقبل الشيخ محمد إلا أنه رفض الإقامة بأم حجر، وقال للشيخ عساكر:

– دعنى أستقر فى مكان معزول.

فسمح له الشيخ عساكر بالإقامة حيث يريد تحرك الشيخ محمد يتبعه أهله ومريدوه، إلى الشمال وعندما وصل الى المكان الذى يوجد فيه قبره الآن، توقفت البقرة التى كانت تحمل متاعه ورفضت التقدم، فقال الشيخ محمد:

– سأقيم خلوتى فى هذا المكان، وهنا سيكون قبرى[٣].

وبعد وفاته تولى ابنه يعقوب مسؤولية الأسرة والحيران، وبقى فى أبى ركبة، وبالتدريج أصبح المكان المهجور الذى اختاره والده، معموراً بالسكان، فقد تجمع الناس حول الخلوة والبئر التى كانت فى الماضى خيطاً رفيعاً من الماء لا يملأ سوى إبريق. ومن هنا جاء اسم «بئر الأباريق»، وقد أصبح ماؤها غزيراً دفاقاً، وكان الناس قبلها يذهبون إلى جديد أو إلى أم حجر ليردُوا.

واستمرت الحياة هكذا، وفى أحد الأيام خرجت القرية كلها لملاقاة رجلين يتقدمان مجموعة من الرجال ويرتدون ثياباً مرقعة، وبعد قليل تبينوا أن أحد الرجلين هو عبد الله بن الشيخ محمد، وعبق الجو برائحة زكية، ثم جلس الرجلان تحت إحدى الأشجار وبدأ الحديث رفيق عبد الله الذى كان ممسكاً فى يده براية سوداء تخفق تحت أشعة الشمس.

وعند رؤية هذا المشهد، صرخت زهرة بنت أرباب، زوجة الخليفة عبد الله قائلة:

– « لقد صدق أبى محمد. جاءنا المهدى المنتظر. لقد أخبرنى أبى محمد، فى أحد الأيام قبل وفاته بقليل، أنه سيأتينا رجل أسود البشرة، له علامتان على خديه ويحمل راية سوداء تشع بالنور، سيكون معه ابنى عبد الله وستخرجون جميعاً لاستقباله وتذبحون له الذبائح. سيجلس تحت شجرة وتفوح منه رائحة عطرة، ذلك الرجل هو المهدى المنتظر ».

حمل يعقوب عثمان بن الخليفة عبد الله على كتفيه وتبعه أخوه هارون وبقية حيران الخلوة ووقفوا أمام القادمين، وبقوا لحظات، وقبل أن يتحركوا أعطى المهدى الراية الزرقاء ليعقوب وقال له:

ستستشهد تحت هذه الراية[٤].

صحب يعقوب وهارون المهدى ومرافقيه حتى الأبيض، ونزلوا فى ضيافة السيد المكى، ولى كردفان، الذى استقبلهم بكرم وحفاوة، وتبادل الحديث لساعات طوال مع المهدى ومع أبناء الشيخ محمد وذكر هؤلاء أن جدهم على الكرار كان تلميذاً لوالده. وشكا السيد المكى من فساد الأخلاق الذى تفشى بين الناس. ومن سوء خلق السادة الذى طال عامة الشعب،

ومن استحلال الحرام. وذكر أن الجميع ينتظرون ظهور المهدى الذى سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وفساداً [٥].

ومنذ عدد من السنين كانت قوافل الحجيج والتجار تأتى من غرب افريقيا متجهة الى الشرق، فيتوقفون فى كردفان ودارفور، إما للتجارة أو للراحة والاستجمام. وقد كان العلماء القادمون من المغرب يستقرون فى الفاشر والأبيض لتعليم الناس أمور دينهم. وكان كل القادمين يتحدثون عن رجل من قبائل الفولانى يسمى عثمان دان فوديو [٦]، اشتهر بالعلم والورع، يذكر لأتباعه أن المهدى سيظهر فى الشرق وأن زمانه قد اقترب. فهاجر كثيرون إلى الشرق استعداداً لمناصرة المهدى عند ظهوره والإيمان به.

وعلى شواطىء نهر السنغال ظهر فى حوالى عام ١٨٥٠م رجل دعا الناس للجهاد فى سبيل الله ضد المارقين من المسلمين والكفار، وكان هذا الرجل عالماً مشهوراً ومقاتلاً جسوراً، اسمه الحاج عمر [٧]، وقد تبنى أفكار الشيخ عثمان دان فوديو وأعلن بدوره أن أوان ظهور المهدى قد اقترب وأن ظهوره سيكون فى الشرق. وعقب وفاته فى عام ١٨٧٦م، هاجر بعض أتباعه إلى كردفان ودارفور انتظاراً لظهور المهدى.

وعندما أعلن محمد أنه المهدى المنتظر، سراً فى البداية، ثم جهراً بعد ذلك، آمن به كل غرب السودان وتبعه.

سمع يعقوب بهذه الأنباء وقرر أن يلحق هو أهله بالمهدى، وذهب إلى جبل أبى وتد فى مملكة تقلى حيث التقى بالمهدى وبايعه [٨]. وقد وصل يعقوب إلى قدير بعد أن اختار المهدى خلفاءه. فعينه أميراً قائداً للراية الزرقاء.

كان يعقوب أسن من الخليفة عبد الله، وكانت تجمع بين الأخوين عاطفة قوية. وكان عبد الله يستشير يعقوب كثيراً ويعمل بمشورته، حيث اشتهر يعقوب بشدة ذكائه وحدته، وبسعة أفقه وعمق إحساسه حتى إنه لقب «بجراب الرأى» ، لأن الناس كانوا يجدون عنده النصح وحل المشاكل التى يواجهونها. كان متوسط الطول، ليس بالسمين ولا بالنحيف، متناسق الأعضاء، ذا بشرة خفيفة السمرة وكان وجهه ودوداً مبتسماً يتميز بعينين نفاذتين، وعرنين أقنى وشفتين دقيقتين. وكان كرمه أسطورياً وقلبه طيباً [٩].

بذل يعقوب كل جهده للقضاء على العداوات والتنافس بين القبائل، وقد سعى للمصالحة بين قبائل الغرب «أولاد العرب» وقبائل النيل «أولاد البلد» وحقق فى ذلك قدراً من النجاح.

كان يعقوب ذا مقدرات عسكرية فائقة كمقدراته على حل كل المشاكل الناتجة من إدارة

الراية الزرقاء. فهو لم يكن يتولى أمر الجند فحسب، بل وشؤون أسرهم، وكان يسهر على حفظ حقوقهم. وكان يعد فى كل شهر قائمة مفصلة بمحاربى الراية الزرقاء وأسُرهم والأسلحة النارية منها والبيضاء، وأدوات الحرب والذخائر والخيل، وكل ذلك محفوظ فى سجل الراية الزرقاء، فقد كان على كل قائد حملة أن يرسل فى نهاية كل شهر تقريراً مفصلاً عن أعداد جنوده.

وتمكن الأمير يعقوب من إحاطة نفسه بموظفين أكفاء كانوا فى الغالب يعملون مع الإدارة التركية سابقاً، وقد كان يتابع بنفسه دقة إدارة رايته بل دقة إدارة جيش المهدية كله.

وقد كان يهتم كذلك بالبريد، وهو الذى تولى أمر تنظيم بيت المال وبيت الأمانة. وقد تولى أخيراً قيادة الراية الزرقاء بدلاً من الخليفة وذلك منذ فتح الأبيض ، فقد ظل الخليفة عبد الله قائداً للراية لكن يعقوب كان وكيله وهو الذى كان يسير في مقدمة الراية فى المعارك وفى العرضة.

وعلى عكس أقارب المهدى الذين يسعون بعد كل معركة للحصول على المال والنساء، كان الأمير يعقوب يأخذ غنيمته من الأسلحة والخيول .

وبصفة عامة كان يعقوب يقود الخيالة، ولذا فعند وفاة المهدى، وخوفاً من حدوث اضطرابات من جانب الأشراف وأنصارهم، فقد طوق بفرسانه المسجد ودار المهدى من كل الجوانب، وعندما تلقى الخليفة عبد الله البيعة من الأنصار، كان يعقوب فى الصف الأول، مترقباً ومستعداً للتدخل عند حدوث أى حركة مريبة، وزيادة فى الحيطة والحذر فقد وضع كل الذين يثق بهم بالقرب من الأشراف وظل ساهرا بنفسه ولم يرجع إلى داره إلا بعد أن تحقق من دخول الخليفة داره [١٠].

وقد فعل الأمير يعقوب الشيء نفسه عندما قرر الأشراف اغتيال الخليفة عبد الله وإحلال الخليفة شريف محله في عام ١٨٩١م ولكن المؤامرة كانت قد كشفت وطوق يعقوب حى الأشراف بقواته إحاطة السوار بالمعصم، وأغلق كل المنافذ أمام أولئك المجتمعين بقبة المهدى، فلم يتمكنوا من الخروج، إلا أن رجال الأمير يعقوب لم يطلقوا أى طلقة طاعة لأمر الخليفة، وعندما حاول الأشراف إحداث ثغرة يخرجون منها وأطلقوا النار على قوات الأمير يعقوب لم يرد أحد من هؤلاء عليهم.

ويعقوب كالأسد الثائر يطوف حول أرجاء المسجد ليتأكد من أن كلاً يحتل موقعه. وأخذ الأشراف يطلقون النار من النوافذ الصغيرة فى أعلى قبة المهدى مما أدى لجرح بعض

جنود يعقوب وقتلهم ، فهدأ الأمير يعقوب من ثائرة إخوانهم الذين أرادوا الرد عليهم قائلاً لهم:

– تذرعوا بالصبر أيها الإخوان، سنجد الفرصة لقتالهم إن هم خالفوا أوامرخليفة المهدى (١١)

.

ولوقف المواجهة، فقد ذهب الخليفة على يتبعه كل من أحمد على قاضى الإسلام وأحمد شرفى جد الأشراف الموقر لديهم، لمقابلة الأشراف وتذكيرهم بتوجيهات المهدى، على أن يتدخل الأمير يعقوب فى حالة فشل وساطتهم، فقد كان الخليفة يفضل ألا يلجأ للسلاح قبل استنفاد كل الوسائل الدبلوماسية، وقد نجحت هذه الجهود ووافق الأشراف على الاستسلام.

كان الأمير يعقوب رجلاً مثقفاً وكان يحب أن يحيط نفسه بعلماء الدين وبالشعراء وكانت داره منتدىً حقيقياً، ويرتاد أمسياته الأدبية بانتظام كل محبى الفنون الجميلة حيث يلتقون عدة مرات فى الأسبوع ، وكثيراً ما كانت تناقش فى داره قضايا الدين واللغة فى حرية كاملة، كما كانت تدور بينهم مساجلات شعرية حامية، وينسى الرجال، لبعض الوقت، كل منافساتهم الشخصية والقبلية ويقبلون على رياضة العقول وحوار الأفكار وقد تهذبت لغتهم وسمت أخلاقهم. بيد أن نداء الجهادكان قد دوى، فقد تعرضت البلاد للغزو ويجب حمايتها، فحمل الأمير يعقوب السلاح مرة أخرى .

اعتاد الأمير يعقوب حتى موته على الحضور الى دار الخليفة عبد الله مساء كل يوم ليناقش معه شؤون الدولة، فقد كان الخليفة يعرض ما يشغله ويطلب مشورة أخيه، ويقدم يعقوب تقريراً عن أعماله اليومية، ويدرسها كلاهما ثم يتخذان القرارات النهائية بعد نقاش مستفيض. وكثيراً ما يأخذ الخليفة برأى أخيه يعقوب، ولكن هذا لايعنى البتة أن يعقوب كان هو الحاكم، فقد كان الخليفة هو الذى يتخذ القرار النهائى وكان رأيه هو النافذ، وإنما يعقوب مستشاره ولم يكن يدير دفة الحكم من وراء الكواليس كما يزعُم بعضهم.

وفى المجلس كان يعقوب يضطر غالباً للأخذ برأى شيخ الدين على مضض، فقد كان شيخ الدين يعارض كل ما يأتى من عمه أ و من ابنى عمه ابراهيم الخليل ومحمود أحمد (١٢)، وكان يعقوب يتجنب أن يثير غضب الخليفة عبد الله بمعارضة ابنه بصورة سافرة، وقد كان لهذا الموقف، الذى أملاه على الأمير يعقوب شدة حبه لأخيه، عواقبه الوخيمة.

ومما يوضح لنا أن الخليفة لم يكن يتبع آراء يعقوب بصورة عمياء، وإنما كانت لديه آراؤه الخاصة، أن الأمير يعقوب كان من أنصار الانسحاب للغرب، منذ عام ١٨٩٦م، فقد كان

يرى أن قبائل الغرب ستحمى أرضها ضد الغازى بحماسة ومقدرة أكبر لأنها تعرفها وتعرف دروبها ومسالكها وطبيعتها معرفة جيدة، أما أم درمان فهى بالنسبة لجميع البقارة مكاناً مقدساً لأن الإمام المهدى قد دفن فيها ولكنها تظل غير أرضهم. أما بالنسبة للخليفة فقد كانت هذه المدينة هى عاصمة الدولة المهدية، ولم يكن يخطر له أن يغادرها، بل كان يريد أن يحي مدينة المهدى حتى آخر رجل وآخر حجر من حجارتها.

وفى مجلس الخليفة الأخير الذى عقده فى كررى كان رأى الأمير يعقوب أن يهاجموا معسكر العدو ليلاً. وقد سانده فى هذا الرأى كل من الخليفة شريف وابراهيم الخليل، إلا أن شيخ الدين اعترض علي ذلك محتجاً بأن المهدى كان يهاجم دوماً عند الفجر، وللأسف فقد تبنى الخليفة رأى ابنه، وبدأ الهجوم عند الفجر بنتائجه التى نعرفها جميعاً.

واجهت الراية الزرقاء العدو تحت قيادة أميرها، واشتد وطيس المعركة وأخذ الموت يحصد الأنصار، وكان الأمير يعقوب ينتظر بفارغ الصبر أن يأذن له الخليفة بالهجوم، وعلى الجناح الأيمن من الجيش كان صهره محمد بن المهدى الذى، صرخ قائلاً:

– الى متى ننتظر. إلى أن يمسكونا بأيديهم.

وانطلق مهاجماً صفوف العدو ومعه كل الذين كانوا من حوله وقاتلوا حتى سقطت خيولهم، ثم واصلوا القتال حتى نالوا الشهادة، وهذه هى اللحظة التى استشهد فيها محمد المهدى ومعه عثمان الدكيم [١٣] ومحمد ودبشارة.

ورفع الجنود جثة ابن المهدى وحملوها نحو جبل سرغام، فأوقفهم الأمير يعقوب وسألهم:

– من هذا الشهيد؟.

– محمد المهدى.

نزل الأمير يعقوب من فرسه ووقف أمام جثة صهره وقرأ الفاتحة، ووقف يتأمل للحظات ثم أشار للرجال بمواصلة سيره وقفز على ظهر فرسه، ثم ألقى نظرة على أرض المعركة حوله، وأرسل بصره إلى المكان الذي أقام فيه أخوه معسكره، وشاهد جسداً ممدداً على فراش الخليفة ومجموعة من الأنصار قد حملوه على أكتافهم واتجهوا به نحو أم درمان. فسأل الأمير : الشايلنو دا منو؟ فأجابوه بأن هذا هو ابراهيم الخليل وقد أمر الخليفة بدفنه فى داره، وعندما سمع هذا الخبر سالت دموعه وصمت لحظة. ثم التفت إلى قواته وصاح رافعاً صوته عالياً:

(الأنصار يا أسفاه؟ انحنا يانا فوق خيلنا والعيال الصغار ناس ابراهيم الخليل روحوا للمقام الدايم.. واحنا يانا فوق خيلنا وماسكين راياتنا.. تبلدية وقعت فوق الكفار.. تبلدية وقعت.. ارفعوا راياتكم واطلقوا خيولكم) [١٤].

وظل يقاتل على رأس الراية الزرقاء حتى سقط تحتها شهيداً كما قال له المهدى من قبل.

وعندما علم الخليفة بخبر انتقال يعقوب للرفيق الأعلى، اهتز جسده، وغطت الدموع وجهه، ورفع يديه إلى السماء وهو يقول بصوت متهدج:

(إنا لله وإنا إليه راجعون).

ومنذ تلك اللحظة التى فقد فيها الخليفة أخاه الأكبر، ذراعه الأيمن ومستشاره وصديقه، لايستطيع أحد أن يزعم أنه رأى خليفة المهدى مبتسماً.

(١) يحمل هذا المرتفع اسمين لم أتمكن حتى الآن من معرفة أيهما الأصح: فهو يسمى جبل سرغام وتارة أخرى جبل سركاب.

(٢) صحيح البخارى، القاهرة، بلاتاريخ، الجزء السادس، ص ٧٨. وصحيح مسلم، القاهرة ، ١٩٥٨م، الجزء الثانى، ص ٢٢.

(٣) رواها لى الشيخ عساكر المكى أبوكلام و أبوركبة ، ديسمبر١٩٨٦م.

(٤) رواية حفيدة الأمير يعقوب، فاطمة بنت عمر بن الأمير يعقوب، نوفمبر ١٩٨٧م.

(٥) المصدر نفسه .

(٦) عثمان دان فوديو أحد علماء الفولانى، ولد فى ١٥ ديسمبر ١٧٥٤م فى مراته بمنطقة غوبو، واشتهر منذ شبابه الباكر بالورع والعلم، وقد أعلن فى كتاباته وخطبه قرب ظهور المهدى المنتظر فى أول القرن الرابع عشر الهجرى فى الشرق. وقدكتب عدداً من المؤلفات. وتحت قيادته فتح الفولانى هضبة فوتا – جالون وديار الهوسا، توفى فى وسوكوتو فى ٢٠ ابريل ١٨١٧م.

(٧) ولد عمر سيدو بالقرب من بودور وربما كان ذلك فى عام ١٧٩٤م أو ١٧٩٧م فى هلوار وكان عالماً معروفاً ومحارباً مشهوراً فى غرب افريقيا، ترك عدداً من المؤلفات فى الفقه والتفسير وأشهرها « الرماح »، توفى فى ١٢ فبراير ١٨٦٤م فى باندياغارا.

(٨) اسماعيل عبد القادر الكردفانى «سعادة المستهدى، سيرة الإمام المهدى» طبعة منقحة، حققها محمد ابراهيم أبوسليم، بيروت، ١٩٦١م ، ص ١٤١، جهاد، ص ١٨.

(٩) أعطانى هذا الوصف حفيد الأمير يعقوب، أحمد عبد المجيد بن الأمير يعقوب، ابريل ١٩٦٨م.

(١٠) يوسف ميخائيل ، ذ.س.، ص ٦٩ .

(١١) المصدر السابق، ص ٨١ .

(١٢) محمود أحمد، ابن عم الخليفة عبد الله ، عامل عمالة الغرب من ١٨٩٠ الى ١٨٩٦م قاد بعد ذلك حملة الشمال، وأسر إثر موقعة النخيلة قرب عطبرة فى ابريل ١٨٩٨م. أرسل إلى رشيد ومات عام ١٩٠٦م.

(١٣) عثمان الدكيم ، شقيق يونس الدكيم، من قبيلة التعايشة، كان عاملاً على بربر من عام ١٨٨٧م الى ١٨٩٠م ، قتل فى كررى عام ١٨٩٨م .

(١٤) زلفو ، ذكر سابقاً ، ص ٥٠٩ ، والصفحات التالية .

عثمان شيخ الدين

انتقل عثمان شيخ الدين إلى الرفيق الأعلى وهو ابن أربع وعشرين، من جراء جرح أصيب به في أم دبيكرات ولم يحسن علاجه في حينه فالتهب وتوفى بعد أشهر من العيش في رشيد. وقد دفن في أرض مصر حيث يرقد جسده بعيداً عن وطنه، بيد أنه يرقد محاطاً بأهله، فعدد كبير من الأمراء كانت رشيد ودمياط مثواهم الأخير. وقد عجل الأسر وعدم العناية وعدم الحركة المفروض عليهم بنهاية حياة هؤلاء المحاربين الذين ألفوا حياة البدو النشطة ومعسكرات القتال الصاخبة. وربما دفع بهم سجانوهم الى حتفهم، فقد كانوا من المساجين الذين يثيرون المتاعب ، ويمكن أن يكونوا هم أنفسهم وقد أثقلت الهزيمة كاهلهم وفقدوا كل أمل فرأوا في الموت السبيل الوحيد لانعتاقهم، بعد أن يئسوا من نيل الحرية، وماذا تعني الحرية للمهزوم الذى رأى الأعداء يحتلون بلاده ويسفهون أحلامه، فأصبح الموت هو الملاذ الذى يجدون فيه الأمن والسلوى والجزاء على ما قدموا من عمل. فهم وإن لم يموتوا على أرض المعركة وسيوفهم بأيديهم ولم يتلقوا الموت وقد افترشوا فرواتهم واستقبلوا القبلة، فإنهم قد قاتلوا كي تكون كلمة الله هى العليا، وسينالون الجزاء الذى وعد الله به كل الذين يقاتلون في سبيله، والسجن نفسه شاهد على ذلك.

عثمان شيخ الدين هو الابن الأكبر للخليفة عبد الله وزوجته زهرة التعايشية. وكان قد ولد قبل مغادرة دار التعايشة، وكان صغيراً جداً عندما توفى جده الشيخ محمد بأبى ركبة.

نشأ عثمان شيخ الدين وترعرع في أم درمان على خلاف بقية أهله فلم يتعود على حياة البداوة الشاقة، بل كان حضرياً يتحدث لغة سلسلة، رقيق الحواشى أنيق الملبس، محباً للجمال ومتطلعاً للمعرفة. وما كاد يخرج من طفولته حتى اندفع للملذات الحسية سواء أكان ذلك بسبب أصدقاء السوء أم بسبب فورة الشباب، وقد أخذ ينزلق شيئاً فشيئاً نحو التهتك الخلقى، فكان يقضى لياليه في صحبة المغنيات والراقصات الحبشيات والمصريات امتاعاً لسمعه وجسده.

استمرت حياته على هذا المنوال حتى انتبه الخليفة فقام بإبعاد رفاق اللهو عن ابنه ووضع

حداً لطيشه. وكان الخليفة قد عهد بابنه منذ صباه إلى شيوخ اشتهروا بالعلم والتقوى وقد أظهر عثمان رغبة قوية فى التعلم لا تتناسب مع سنه ومكانته، وحتى عندما كان فى غمرة لهوه، لم يكن ينسى أن يدخر شيئاً من زمنه لتغذية عقله وروحه، فكان يقرأ باستمرار كل ما يقع فى يده من كتب وصحف تصل إلى السودان سرا عن طريق التجار القادمين من مصر أو تلك التى يتحصل عليها من الأعداء المقتولين أو المأسورين. وكان يحب الاتصال بالأجانب الذين عملوا فى العهد التركى وقبائل النيل أو أولاد البلد الذين كانوا يعتبرون ذروة سنام المدنية، وذلك على عكس البدو القادمين من الغرب أو أولاد العرب. وكان يسعى للاحتكاك بهم للحصول على أخبار العالم الخارجى، ولكى يتعرف حياة معاصرة مختلفة عن حياته التى ألفها.

كان سلوكه ذلك شائناً كُله، فابن الخليفة عبد الله لم يكن يقضى لياليه فى اللهو فحسب، بدلاً من قراءة القرآن والحرص على الجلوس فى مجلس والده ومجالس أولاد العرب، بل كان يميل لتفضيل الحياة الحضرية وملازمة أعدائه القدامى الذين كانوا يكتمون شيئاً من الكفر، على الرغم من اعتناقهم المهدية. وكان المخلصون للخليفة ينصحونه بإدخال ابنه فى الجيش وذلك حتى يتقن فنون القتال ويتعود على حياة الطاعة والنظام، وقد اقترحوا إرساله إما الى الزاكى طمل الذى كان يقاتل لردع الأحباش أو إلى الأمراء الذين يقودون بعض المواقع المتقدمة فى الشمال . لكن الخليفة على الرغم من اقتناعه بهذه النصائح غلب عليه حبه لابنه، وبالرغم من أنه كان قاسياً على نفسه وعلى الآخرين إلا أنه كان ضعيفاً أمام ابنه، فالخليفة كان يرى أنه مازال صغيراً يافعاً لا يستطيع تحمل حياة المعسكرات القاسية.

كان عثمان يتمتع بكثير من اللطف لذا كان محبوباً لدى الجميع، مشاغباً حتى إنه كان فى بعض الأحيان يتجاوز حدود الاحترام واللياقة، إلا أن طيبته ولطف اعتذاره كثيراً ما يؤديان الى تهدئة غضب ضحايا سخريته.

يحكى أنه ذهب فى أحد الأيام لزيارة المطبعة. وهناك شاهد لحية الشيخ المسؤول عنها، وكانت كثيفة جداً، فأمسك شيخ الدين بها وأخذ يجذبها قائلاً:

– إن لحيتى ليست طويلة كهذه.

فصفعه الرجل وذهب عثمان إلى والده شاكياً، وطالب أباه برد هذه الإهانة فقام الخليفة الذى كان لايجامل أحداً أبداً ولو كان ابنه، وكان يحرص علي التأكد بنفسه من صحة كل شكوى. فاستدعى الشيخ وطلب منه إيضاح حقيقة ما حدث فأخبره الشيخ وهو مايزال

يرتجف غضباً . هناك صاح الخليفة قائلاً:

– للأسف لقد عجلت وأخذت قصاصك بنفسك ولولا ذلك والله لقطعت يده[1].

بعدها وضع الخليفة ابنه تحت يده وفرض عليه نظاماً صارماً فى الحياة. ووضع حداً لحفلات الطرب وليالى اللهو والمجون وأصبح عثمان بدلاً من أن يقضى وقته فى الاستماع لأغانى الحب وإمتاع بصره وسمعه مع غانيات مصر والحبشة، شغل وقته بالدراسة على يد الشيخ الطيب هاشم الذى اشتهر بالشدة. وقد اختاره الخليفة بنفسه، فدرس شيخ الدين على يده اللغة والأدب والفقه ثم ضمه الخليفة للقضاء وهكذا أطلق عليه لقب شيخ الدين.

كان عثمان شيخ الدين يتمتع بحس عدلي عميق، فقد كان يقضى في كل الذين وقفوا أمامه حسب أحكام الشريعة الاسلامية. وكانوا جميعاً أمامه سواء، حيث إنه لم يكن يميز بين الفقراء والأغنياء ولا بين أبناء الغرب الذين ينتمى إليهم بصلة الدم والقبيلة وبين الذين يسكنون على ضفاف النيل، بل كان يعطى كل ذى حق حقه، فنال احترام كل سكان أم درمان لعدالته ونزاهته.

زوّجه الخليفة من حواية إحدى بنات أخيه يعقوب ليهدىء من ثورة دمائه الحارة. وكان يهدف بذلك إلى تقوية صلات الدم ووضع نهاية للعداء بين العم وابن أخيه. إلا أن شيخ الدين كره فوراً ابنة عمه ولم يكن الزواج موفقاً. وحتى لايغضب الأمير يعقوب أخاه طلب من ابنته الصبر وعدم الشكوى من صهره، وصمت شيخ الدين لنفس الأسباب وتحمل زوجته، ثم زوجه الخليفة إحدى بنات المهدى صفية والدة ابنه خالد.

وعثمان شيخ الدين الذى كان يتمتع بذكاء وقاد وعقل ناقد، لم ينجح في التعايش مع الوسط الصارم والتقليدى الذى كان يعيش فيه والده. وكان يسخر دون تردد من مستشارى والده الذين كان يراهم شيوخاً لايهتمون الا برفاهيتهم وحاجاتهم اليومية، لا بالدولة والمشاكل التى كان يجب عليهم مواجهتها. وكان يدفع الخليفة بروح ثورية تجديدية الى التخلى عن كل تقليد للماضى. كان شيخ الدين يؤمن بضرورة مواكبة العصر والاستفادة من دروس التاريخ وعبره، وليس تقليد حياة الرسول (ﷺ) وأصحابه[2] تقليداً أعمى.

كان يحث والده على قبول عروض التحالف التى جاءته من منليك وخاصة عندما بدأت قوات المهدية تتعرض للنكسات. ففى عام ١٨٩٥م ارسل منليك مبعوثاً إلى الخليفة طالباً التحالف معه والتوحد ضد الأجانب الأوربيين. إلا أن الخليفة رفض ذلك وحاول شيخ الدين، بلا جدوى إقناع والده مؤكداً له أن النجاشى علي حق وأن الوحدة الافريقية تأتى قبل وحدة

الإيمان، فقد كانت السياسة بالنسبة إليه أهم من الدين.

وبعد هزيمة محمود ود أحمد نصح والده بقبول مساندة فرنسا والسماح برفع علم فرنسا الذى أرسله له منليك على حدوده إلا أن الخليفة رد قائلاً :

– ينبغي على استشارة عمك يعقوب ورجال الخبرة فى المجلس .

لكن شيخ الدين تنهد بضيق وصرخ قائلاً:

– سوف يعطوننا أمثلة عن الرسول والحروب التى انتصر فيها المهدى دون مراعاة الفارق الزمنى الكبير.

قام الخليفة بدعوة مجلسه إلى اجتماع عرض خلاله الوضع، فقال الأمير يعقوب لأخيه: نحن نخوض الآن حرباً مقدسة فلا يجب علينا التحالف مع الأعداء إذ إن المهدى كان لا يملك سوى السيف وتمكن من طردهم جميعاً من بلادنا وسنفعل نحن مثله.

ساند الأمير يعقوب فى رأيه هذا عمومته ابراهيم الخليل واسماعيل أحمد، فاعترض شيخ الدين قائلاً:

– نعم، لقد أتى المهدى بالسيف وحده وحرر البلاد حتى الخرطوم ولكن أنتم ماذا حررتم؟ فهؤلاء الذين يحاربوننا تساندهم العديد من الدول، أما نحن فماذا نملك لمواجهتهم؟ إننى أرى أن نرفع هذا العلم على حدودنا وهكذا تكون بلادنا محمية بدولة كبرى(٣)

رفض يعقوب وأبناء عمه هذا الاقتراح، واشتد الجدل لدرجة التحدى بين العم وابن أخيه. وتبادلا الكلمات الجارحة وكان شيخ الدين يتحدث بغضب، فقد كان غاضباً من زوجته التى تركت منزلها وذهبت الى منزل أبيها، متهمة شيخ الدين بهجرها وإهمالها من أجل غانيات المدينة. وأخذ شيخ الدين على عمه الوقوف بجانب ابنته بدلاً من ردها إلى عقلها وإرجاعها إلى منزل زوجها.

بعد هذه المجادلة غادر عمه المجلس وانتهز شيخ الدين هذه الفرصة محاولاً حمل والده على الأخذ برأيه، مذكراً إياه بأن يعقوب يعتقد أن كثرة العرب البدو تكفى لتحقيق النصر، إذ انه لايراعى قوة السلاح النارى والمهارة في استخدامه، فبالنسبة ليعقوب، استعمال السلاح الأبيض عند المواجهة الفردية يقود إلى النصر على السلاح الحديث. أدى سخط شيخ الدين على عمه إلى التحيز ضده.

لقد كان الأمير يعقوب على إلمام تام بصعوبة الوضع إلا أنه لايستطيع حث الخليفة على التحالف مع الكفار، بينما نظر شيخ الدين إلى الجانب الواقعى، فهو يرى أن مثاليات المهدية

لم تعد تواكب العصر ولم يكن يعتقد أنه بالتحالف مع الأجانب يصبح مسلماً عاصياً.
وقال لوالده:

– إن أخاك يعقوب لا يريد أن يكون تحت إمرة الكفار ولكن هؤلاء موجودون فى كل مكان ولاتنجو دولة من قبضتهم. فأنا اقرأ الصحف وأتابع الأحداث الجارية الآن، فحالياً نحن لانملك مقاتلين، فقد قتلت أنت وأخوك زعماء أولاد البلد، ومن بقى منهم لن يقاتلوا معنا بل سوف ينضمون للأعداء ، وأولاد العرب كثيرو العدد، وكلهم غير منظمين ، فأرجو أن تسمع نصيحتى بقبول مساندة فرنسا. فإنها دولة كبرى والإنجليز سوف يترددون فى مهاجمتها عندما نكون تحت حمايتها.

كان شيخ الدين يتحدث بحماسة الشباب واندفاعه، وكان الخليفة ينصت إليه فى هدوء وأخيراً ختم النقاش قائلاً لابنه:

– يا بنى إن أولاد البلد الذين تلومنى على قتلهم، ما قتلتهم إلا بأمر من الله، فقد عصوا أمر المهدية ، وقد نفذ عمك يعقوب أوامرى فقط ، فنحن نجاهد فى سبيل الله ونقاتل لنصرة كلمته ولا نستطيع التحالف مع الأعداء فالأمر بيد الله إذا أراد شيئاً فسوف يكون، ونحن سنفعل كل ما نقدر عليه، وإنا لله وإنا إليه راجعون (٤).

وهنا صمت شيخ الدين، فهو يعلم جيداً أن هناك حدوداً لاينبغى تجاوزها مع أبيه. وكان شيخ الدين يقود فى هذا الوقت ملازمى الخليفة الشباب «الملازمين الجدد» وهي كتيبة مصفاة تتكون من الجنود السود والرهائن وأسرى الحرب أو الذين أخذوا لضمان ولاء قبائلهم، والذين انضم إليهم مع مرور الزمن بعض أبناء قبيلة البقارة والقبائل الأخرى.

وقد كان الانضمام لملازمى الخليفة شرفاً يتطلع إليه الجميع. وضم الخليفة عبد الله إلى هذه الكتيبة أشخاصاً أراد وضعهم تحت عينه. وتسلحوا جميعاً بالسلاح النارى وكان شيخ الدين يقودهم بجدية ، وقد عمل على تسليحهم بأفضل الأسلحة وكان يحرص على تزويدهم بالذخائر وبالمؤن الجيدة.

كان شيخ الدين من أنصار فكرة وضع قوات كافية فى ممر السبلوقة لمنع إبحار الأعداء، وعندما علم بقرار الخليفة بإخلاء السبلوقة وسحب القوات بسبب العجز عن التموين، غضب لذلك وسعى إلى حمل الخليفة على تغيير رأيه، غير أن الخليفة رد عليه بأن المهدى قال له فى حضرة نبوية إن كررى سوف تكون مقبرة للكفار، وان المعركة ستدور فى هذا الميدان لكي تتناثر فيه بقايا عظامهم وتتعفن فيه جثثهم. ولم يتمكن شيخ الدين من الاعتراض، واتجه إلى

بيت الأمانة حيث مخزن الأسلحة كلها فقام باختيار أفضلها وأعطاها للملازمية.

وعلى العكس من الأمراء الآخرين من أقارب الخليفة وأصحابه، فإن عثمان شيخ الدين المؤمن لم يعمه الإيمان، ففكره الناقد كان يبين له مواطن الضعف فى وجهات النظر المختلفة ويمكنه من الإحاطة بكل جوانب المشكلة. ومنذ أن بدأت المهدية تتعرض للهزائم فى الشمال كان قد أيقن بالهزيمة معتمداً فى رأيه على الواقع الملموس للأحداث فحسب. ويالأسف فقد كان يدع مشاعره تتغلب على عقله. كان بينه وبين ابن عم والده إبراهيم الخليل تنافس ممزوج بالعداء فى كل المواقف. فبالرغم من التقارب بينهما في السن إلا أنهما كانا مختلفين فى الشخصية والسلوك، فبينما كان شيخ الدين لايكترث بأمور القتال ولاينشغل بالحرب، كان ابراهيم الخليل يحب القتال ويمتلك موهبة فطرية فى القيادة العسكرية.

أوكل الخليفة عبد الله منذ بداية حكمه إلي ضباط الجيش التركى القدامى والأنصار الذين اشتهروا بفنون القتال مهمة تدريب الشباب المحيطين به، الذين انتقلوا من الحياة البدوية الى المدينة . وكان علي كل الصبية الذين بلغوا سن القتال أن يلتحقوا بهذا التدريب وقد تميز فيه ابراهيم الخليل واخوه محمود، لكن شيخ الدين كان يفضل المعارك الفكرية علي تلك التى تنجز بالسلاح. وكان يسخر بلا حياء ويهزأ مازحاً ببطولات أهله وأبناء قبيلته. وكان خلال مجالس الخليفة يداوم على الاعتراض على آراء ابراهيم الخليل، وهذا الأخير كان يسلك نفس المسلك تجاه آراء شيخ الدين، وكان الخليفة، والذى يحمل الود نفسه لكليهما بزيادة قليلة لابنه، يأخذ حسب حالته الذهنية برأي هذا أو ذاك.

كان الأمير يعقوب من أنصار فكرة التوجه نحو الغرب وذلك حتى يتمكن الأنصار من إصلاح وضعهم عن طريق حرب العصابات. وقد كان كل أمراء الغرب تقريباً يرون هذا الرأى ولكن أحداً منهم لم يجرؤ علي نصح الخليفة بذلك، فمثلهم الزاكى عثمان [٥] داعياً للانسحاب الي الغرب ولكن الخليفة رفض هذا الرأى بشدة قائلاً:

– سأحمى مدينتى حتى النهاية وسأموت تحت ظل قبة المهدى.

ورمي بالزاكي في السجن، ثم اطلق سراحه عقب تدخل عثمان شيخ الدين[٦] الذى عارض هذه الفكرة على الرغم من اقتناعه بصحتها.

انساق شيخ الدين لعاطفته وقد أعمى عداؤه لابراهيم الخليل ولعمه يعقوب بصيرته وحجبه عن رجاحة العقل والمنطق. وعندما انعقد مجلس الخليفة الأخير فى أول سبتمبر بكررى، عارض بشدة إبراهيم الخليل الذى كان يرى، ويسانده في ذلك الخليفة شريف وعدد من

الأمراء، أن يهاجموا الإنجليز ليلاً. ولأول مرة استشهد شيخ الدين بالتقاليد ذاكراً أن المهدى كان يهاجم عادة عقب صلاة الفجر وأنه يحب إتباعه في ذلك، ويا للأسف رغم احتجاج ابراهيم الخليل العنيف، فقد انتصر رأى شيخ الدين وأمر الخليفة بالهجوم عند الفجر.

غادر ابراهيم الخليل المجلس غاضباً وجمع فرسانه وقادهم بنفسه مهاجماً مواقع الإنجليز الأمامية وظل يناوشهم طوال الليل وأنزل بهم خسائر فادحة.(٧)

وقد زعم البعض أن شيخ الدين رفض القتال، ولم يخض غمار المعركة إلا نتيجة لأوامر الخليفة المتكررة ومن الصعب علينا الحكم علي ذلك، لأن كل الروايات التي بين أيدينا عن المعركة جاءت من الأعداء، ولانملك أى شهادة من أحد الذين اشتركوا فى القتال، وذلك لقلة الأحياء واختلاف رواياتهم للأحداث بيد أن هناك أمراً مؤكداً وهو أن شيخ الدين لم تكن لديه أى خبرة عسكرية ولكنه قد ورث شجاعة أهله وكان يعرف القتال. أما الملازمون فقد كان منوطاً بهم حراسة دار الخليفة وبيوت الأمراء وليس حماية الأماكن الإستراتيجية أو الدفاع عن المواقع المتقدمة علي الحدود. وكان قائدهم هو ابن الخليفة فحسب، ولم يكن من الضرورى أن يكون محارباً محنكاً.

أما فى كررى، فقد كان الأمر مختلفاً، كان شيخ الدين يقود قوة الإنقاذ، وبدلاً من انتظار الأمر بنجدة الراية الزرقاء، انطلق بفرسانه متعقباً فرقة من الرماة، وعند رجوعه منهكاً من مطاردته غير المجدية، كانت الهزيمة علي وشك الوقوع. وعندها لم يكن أمامه خيار سوى القتال. فانسحب برجاله إلى أم درمان وكان يريد أن يقاتل بين المنازل حتي يموت تحت أنقاض المدينة التى نشأ وترعرع فيها. ولكن جاء أمر الخليفة بالانسحاب إلى الغرب، وما كان له إلا أن يطيع الأمر.

وقاتل فى أم دبيكرات حتى جرح في يده، وبينما كان جرحه يضمد افترش والده فروته وذهب للقاء ربه حاول شيخ الدين الانضمام إليه، ولكنه سقط على الأرض بلا قوة. لم تكتب له الشهادة وتجرع مرارة الهزيمة والأسر، حتى فتح له الموت الباب إلى الجنة التى وعد الله الذين يقاتلون فى سبيله.

ألا طيب الله ثرى مصر الذى ترقد عليه يا عثمان شيخ الدين، ابن الخليفة، ولتهنأ في قبرك حتي يقوم الخلائق للقاء ربهم يوم الحساب، يقول الله تعالى:

(والذين قاتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم (٨). صدق الله العظيم.

(١) زلفو، ذ.س، ص ٢٦٢
(٢) يوسف ميخائيل ، ذ.س.ص ٩٩ – ١٠١
(٣) نفس المصدر ص ١١٦ – ١١٧
(٤) نفس المصدر.
(٥) محمد الزاكي عثمان، أمير وعامل بربر من عام ١٨٩٠ إلى ١٨٩٦م، ثم عاد إلينا بعد وصول محمود إلى المتمة وأقام بها حتى تم إجلاء المدينة في يوم الخميس ٢٧ أغسطس ١٨٩٧م، وقتل في كرري عام ١٨٩٨م.
(٦) زلفو . ذ.س، ٣١٥ – ٣١٦ .
(٧) نفس المصدر، ص ٤٠٨ – ٤١١ .
(٨) القرآن الكريم – سورة محمد الآية رقم (٤).

الأمير عثمان آدم

في عام ١٨٨٦م كانت مجموعة كبيرة من جيوش المهدية تتقدم نحو مدينة الأبيض، بمختلف راياتها التي ترفرف من سرعة تقدمها شوقاً لدخول هذه المدينة، وعلى رأس تلك القوات فتى ذو وجه نحيل تكسوه القوة ورباطة الجأش، تعلو رأسه عمامة ناصعة البياض، يرتدي جبة من الدمور مرقعة بقطع مختلفة الألوان، حاملاً سيفه في غمد عادي من الجلد وبيده حربة كبيرة «كبس» وعلى ظهره كنانة مملوءة بحراب صغيرة .فارس تقرأ من ملامحه وسامة بالرغم من آثار السهر والارهاق، ذو سحنة سمراء، على وجهه آثار الجدري غير أنها لم تشوه ملامح وجهه، وتشع عيناه السوداوان من حين لآخر. لحيته دائرية صغيرة وشاربه خفيف، ربعة نحيف، لكنه قوى نشيط . هذا الفارس هو عثمان آدم ابن عم الخليفة. وقد كان في طريقه لتقلد منصبه عاملاً على كردفان. وعندما اقترب عثمان آدم وأصحابه من بوابة المدينة فتح الباب على مصراعيه ليخرج منه فارس طويل القامة شديد سواد اللون قد غطت رأسه خوذة من حولها عمامة حمراء، ومن خلفه قرابة المائة فارس، فارعى الطول، حاملين على أكتافهم دروعاً تعلوها فراء من جلود الفهود. وعلى أرجلهم دروعٌ واقية عليها أجراس صغيرة تصدر صلصلة قوية عند كل حركة، وكانوا جميعهم مسلحين بالبنادق والسيوف والحراب.

عندما رأى عثمان آدم هذا الفارس ترجل من على فرسه مسرعاً لتحيته باحترام وشوق، حامداً ربه الذى أتاح له مقابلته ورؤيته مرة أخرى. وكان هذا الفارس هو القائد المقدام حمدان أبوعنجة الذى أمره الخليفة بمغادرة جبال النوبة والتوجه إلى الأبيض، حتى يسلم زمام أمر المدينة لعثمان آدم بعد وفاة عاملها محمود عبد القادر [١] وذلك لتفادى أى تمرد جديد.

الفارس عثمان آدم فتى فى مقتبل العمر إذ لم يكد يتجاوز العشرين عاماً، إلا أنه رجلُ حرب وبأس، بل هو صورة حية للفارس العربى المقدام، ذو حنكة ودهاء فى الشؤون السياسية والعسكرية، مقدام جسور لايقدم على فعل شيء إلا بعد تمحيص وتدقيق، ويتمتع بكل صفات الرجولة، متى ما قرر أمراً مضى لايلوى على شيء. لايهاب فى الحق لومة لائم.

ولقد عاش في زمن وفي بلد عرف كل رجاله بالشجاعة، فاشتهر بينهم بإقدامه واحتقاره للموت، وزهده في هذه الدنيا الفانية، ورغبته في الآخرة، مكرساً كل أفكاره وأعماله في سبيل الله، والدنيا لاتعنى عنده إلا قليل متاع وتتوجه كل أفكاره إلى الآخرة . وكان بتصوفه يرى أن نزوات الدنيا ولذاتها ما هي إلا عقبات تحول دون السمو الروحي. وكان يبلغ في تواضعه وطاعته للخليفة عبد الله حداً بعيداً، حيث كان يطيعه في كل الظروف، الشيء الذي وضعه في مكانة عالية لدى الخليفة. وكان جد الخليفة علي الكرار أخاً لعمر جد عثمان آدم. وبالرغم من صغر سن عثمان إلا أنه كان حكيماً حريصاً ومتروياً. لكل ذلك فقد عينه الخليفة عاملاً على كردفان طالباً منه اخماد محاولات التمرد والعصيان التي يمكن أن تحدث، وحث القبائل على الهجرة إلى أم درمان حيث مقر الخليفة.

كانت تلك مهمة صعبة وشاقة، ولكن عثمان آدم نجح فيها نجاحاً عظيماً على الرغم من كل الصعاب التي واجهته. فقد ترك الغرب هادئاً نسبياً عند وفاته في عام ١٨٩٠م، وقبائل البقارة هاجرت إلى أم درمان حسب أوامر الخليفة. إن هذه الإنجازات لم تتحقق دون عقبات جسام، فبعد وصوله إلى الأبيض كان عليه أن ينظم إدارة المدينة والوحدات العسكرية الموجودة بها، وقد تمكن بمساعدة الأمير حمدان أبي عنجة الذي كان عثمان آدم يطلب منه دوماً النصح نسبة لحنكته العسكرية، وبمساعدة ود النجومي ، من القضاء على تمرد الكبابيش[٢] ، فبعد عدة مصادمات دامية تمكن من حصار قائد التمرد وقتله[٣] بيد أحد قواده ويدعى سليمان أحمد أكرت [٤] ، وساعده في ذلك سيماوى تمساح [٥] زعيم قبيلة دار حامد الذي كان يكن عداءً قديماً لزعيم الكبابيش صالح فضل الله لقتله والده وعمه. وقد أرسل رأس صالح فضل الله سالم إلى الخليفة وتشتت شمل قبيلته، وقد تم ضم كل من بقي على قيد الحياة من رجاله إلى جيوش المهدية وأخذت أموالهم وخاصة جمالهم غنيمة، وقد عين الخليفة زعيماً آخر على رأس قبيلة الكبابيش.

بعد أن أخمد عثمان آدم تمرد الكبابيش، كان عليه أن يترك كردفان لقمع تمرد الفور الذين استغلوا فرصة أن حاكمهم الحالي هو ابن سلطانهم القديم فحاولوا زعزعة سلطة المهدية، إذ إنهم لم ينضموا إلى دولة المهدية بإخلاص، أو عندما عين يوسف ابراهيم [٦] عاملاً على الفاشر لم يتصرف بوصفه عاملاً من عمال المهدية وإنما تصرف بحسبانه سلطاناً، فهو ابن سلاطين الفور وحفيدهم – اولئك الذين حكموا هذه المنطقة لعدة قرون. وقد أعلن تمرده

علانية وهاجم قوات المهدية المتمركزة فى منطقة دارة، وفى تلك الأثناء وصل عثمان آدم إلى المدينة وتمكن من انقاذها. وصل عثمان آدم الى دارفور فى بداية شهر نوفمبر عام ١٨٨٧م وكان فى شكا وقتذاك ابنا كركساوى [٧] اللذان انضما إلى معسكر عثمان آدم بالأضية.

وقد كانت قواتهما تتكون فى غالبيتها من جنود تجار الرقيق السابقين «البازنجر» [٨] وقد شهد كرم الله ، الذى كان قد جاء من بحر الغزال بأمر من الخليفة لمقاتلة الرزيقات ،كل قواته تقريباً وهى تتمزق نتيجة للمعارك التى خاضتها ضد المتمردين. أما أخوه محمد شيخ الدين كركساوى فقد قاد كذلك عدة معارك ضد يوسف ابراهيم وقد تكبد أيضاً خسائر فادحة. خاض عثمان آدم معارك طاحنة حتى دخل الفاشر فى يوم ٢٥ يناير ١٨٨٨م وكان قوام جيشه ١٧١٥٩ رجلاً. أما يوسف ابراهيم فقد هرب إلى جبل مرة، وقد تعقبه الأنصار حتى تم القبض عليه فى مارس ١٨٨٨م بعد أن أبدى مقاومة ضارية حيث هزم وأرسل رأسه ورؤوس أهم قواده إلى أم درمان، وبذلك كانت نهاية مقاومة الفور. وقام عثمان آدم بوضع نظم الحكم المهدية بالفاشر وجعلها مقراً لقيادته. ثم أصدر الخليفة عبد الله مرسوماً يقضى بدمج كردفان ودارفور وأطلق عليها اسم عمالة الغرب حتى يسهل حكمها. وعين عثمان آدم عليها.

بدأ عثمان آدم فى دعوة قبائل البقارة إلى الهجرة إلى أم درمان ولبت بعض القبائل دعوته حيث تحركوا بأسرهم وأسلحتهم وجيادهم، وقام عثمان آدم بإرسالهم إلى أم درمان . أما القبائل التى تركت أسرها من خلفها فكان عليها الرجوع لتجميعها وإرسالها إلى أم درمان. هناك بعض القبائل وخاصة الرزيقات [٩] والتعايشة والهبانية [١٠] قد تمردت على أمر الخليفة ورفضت ترك ديارها. وكانت الهجرة والجهاد من أهم مبادىء المهدية. وفى حياة المهدى كانت الهجرة إليه واجباً على كل المؤمنين إيماناً صادقاً بمهديته، وبعد وفاته أصبحت الهجرة واجباً لأجل زيارة ضريحه ونيل بركاته، وكان المهدى قد اختار عبد الله خليفة له ووارثاً لسلطته الروحية لذا كان فرضاً على كل فرد الهجرة إلى أم درمان لأداء البيعة له. أما الذين رفضوا ذلك أو تذرعوا بأعذار واهية فهم فى عداد أعداء الله لأنهم قد خالفوا أوامر مهديته فتهدر بذلك دماؤهم وأموالهم، وبعد أن رفضوا الإنصياع له أمر الخليفة عبد الله الأمير عثمان آدم باخضاع هذه القبائل وتخريب زراعتهم وديارهم. ولتحقيق هذا الهدف عمد عثمان آدم إلى غرس روح العداء والفتنة بين تلك القبائل، فاستفاد من العداء والكراهية الموجودة بين

الرزيقات والحمر [١١] فكتب إلى الرزيقات قائلاً لهم كلوا أموال الحمر وممتلكاتهم لأنهم فاسدون وأنتم أنصار المهدية وكتب نفس الشيء إلى الحمر [١٢].

وبذلك أضعف القبائل حتى يسهل اخضاعها. وبعد عدة مصادمات دموية استطاع قهر القبائل المتمردة، وقدم زعماء التمرد فروض ولائهم لعثمان آدم وأعلنوا استعدادهم للهجرة إلى أم درمان. أما قبيلتا التعايشة والهبانية فقد رفض السواد الأعظم منهم ترك مناطقهم. فأرسل إليهم عثمان جيشاً جراراً تم تكوينه من قبائل مختلفة تحت قيادة الختيم موسى والبشارى ريدة وفضل النبى أصيل [١٣]. وقد قسم الجيش إلى قسمين، القسم الأول بقيادة الختيم موسى وفضل النبى أصيل ودخلت هذه القوات دار التعايشة وخربتها خراباً كاملاً. فطلب زعماء هذه القبائل الأمان وقبلوا الهجرة إلى أم درمان. أما القسم الثانى فكان بقيادة البشارى ريدة ودخل دار الهبانية، وبعد عدة معارك طاحنة استسلم الهبانية وقبلوا الهجرة إلى أم درمان. وحضر الهبانية والتعايشة إلى الفاشر وأدوا البيعة أمام عثمان آدم، وطلبوا منه العفو من كل ما اقترفوه من معصية وطلبوا أن ترد إليهم أموالهم وأنعامهم، فعفا عنهم عثمان آدم وأرسل إلى الخليفة لكى يصدق على ذلك. أما الغنائم التى أخذت أثناء المعارك التى كانت فى الغالب عبيداً وأبقاراً، فقد أصبحت ملكاً لبيت المال. فأعطاهم عثمان آدم بعض التعويض. ومنع الأنصار من أن يستولوا ولو على اليسير من ممتلكات هذه القبائل ومن احتقار أى فرد من أفرادها أوإساءته ثم أعطاهم جمالاً وأرسلهم إلى أم درمان. ولم يمنعهم كل ذلك من محاولة الهرب والعودة إلى ديارهم متى ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فكان الأنصار يلحقون بهم ودارت معارك شرسة كانت تنتهى بانتصار الأنصار وأسروا الهبانية والتعايشة الذين تعاونوا معهم وكبلوهم بالقيود ثم واصلوا مسيرتهم إلى أم درمان. وبقى زعماء التعايشة الهبانية ورجالهم الذين لم يهربوا مع الأنصار بعد أن استسلموا لعثمان آدم، بل ساعدوا الأنصار ضد رجال قبائلهم ولكن هذا لم يدم طويلاً، فبعد وصولهم إلى أم درمان بقليل، هرب الغزالى أحمد خواف [١٤] زعيم التعايشة فتعقبه الأنصار وقتلوه.

بعد أن قمع عثمان آدم تمرد البقارة كان عليه محاربة القبائل الأخرى وهى قبائل وثنية فى الغالب فى شمال دارفور ومعظمهم كانوا من الذين تحالفوا مع الفور ضد الأنصار. وأرسل اليهم عثمان آدم عدة جيوش بقيادة أشد قواده، فأرسل محمد بشارة لقمع قبيلة الميدوب، وقد كان رغم صغر سنه فارساً محنكاً وقائداً مطاعاً ومحبوباً لدى جنوده ومدرباً على فنون

الحرب. فهزمهم بعد معارك شرسة وأخذهم إلى الفاشر. وفى الطريق إلى أم درمان تمكنوا من الهرب والاحتماء بجبالهم ولم يستطع الأنصار ملاحقتهم، فاضطر عثمان آدم لتركهم لأنه كان قد حرك قواته لشن حملة ضد دار تاما. أما الزغاوة، بقيادة ملوكهم فقد قاوموا الأنصار ورفضوا الإنصياع لأوامر المهدية، فأرسل عثمان آدم عليهم قوة بقيادة العطا أصول[١٥] الذى قاتلهم وكاد أن يهزمهم لكنه أضطر لترك الإقليم وذلك لنجدة عبد القادر دليل[١٦] الذى كان يواجه صعوبات شديدة بدار قر، وكان العطا أصول قبل أن يشن هجومه على الزغاوة وبعد أن تعقب الفور وهزمهم قد اتجه لحلفائهم من المهدية وهزمهم بعد معارك دامية وأرسلهم أسرى إلى أم درمان[١٧].

كل هذه المعارك الداخلية خلفت وراءها عدداً كبيراً من القتلى بصفوف الأنصار فكانت القبائل تعود إلى التمرد عندما يغادر الأنصار ديارهم أو حتى عند بقاء قوات قليلة العدد من الأنصار فى تلك المناطق.

استأنف أبو الخيرات أخو يوسف ابراهيم، الحرب مرة أخرى ضد المهدية، وتجمعت من حوله جميع قبائل الفور وقبائل أخرى. وبعد فترة ادعى رجل من دار تاما خلافة عثمان بن عفان التى عرضها المهدى على السنوسى ورفضها. هذا الرجل لا يعرف عنه إلا القليل فقد كان (فكيا) متخصصاً فى الطلاسم والسحر بجميع أنواعه. اسمه الحقيقى هو محمد الزين وقد اشتهر باسم أبى جميزة وذلك يعود إلى شجرة كان قد اعتاد الجلوس تحتها. وقد ادعى بأنه رأى فى المنام النبى (ﷺ) وأخبره بأنه الوريث لخلافة عثمان بن عفان وأن كل الغرب سوف يكون تحت رايته. وقد آمن بدعوته هذه كل سلاطين التاما وقمر والبرنو وسالا، ومما جذب اليه قلوب كثير من البسطاء أنه أعلن أن الله أمره بفتح طريق مكة وأن الحجاج يمكنهم التوجه لأداء الحج منذ تلك اللحظة، وكان المهدى قد أغلق هذا الطريق ومنع الحجيج من الذهاب إلى مكة حتى يتم تطهيرها من فساد وظلم القائمين على أمرها.

وقد علم عثمان آدم بذلك عن طريق الرسائل التى بعثها إليه الختيم موسى الذى كان قد أرسله لردع قبيلة تاما التى لجأ إليها كثير من المتمردين، وقد رفض سلطانها تسليمهم. أرسل عثمان آدم للخليفة يخبره بهذا الأمر وبدأ يعد العدة للجهاد فأصدر نداء عاماً لكل رجال الغرب يدعوهم فيه للانضمام إليه فى الفاشر. وبعد أن جهّز جيشه أرسله تحت قيادة محمد ودبشارة ضد دار تاما. وقد استدعى لأجل ذلك كل الحملات التى كان عليها التجهيز لهجرة

القبائل إلى أم درمان. فأرسلهم لتعزيز الأنصار الذين يخوضون المعارك ضد دار تاما والديار المجاورة لها. وقد استعد عثمان آدم لشن المعارك بنفسه ضد أبي جميزة الذى هزم ثلاثة جيوش من الأنصار على التوالى.[١٨] .

وأما أبو جميزة فقد صبغ أهدافه بصبغة دينية من أجل تحقيق مآربه السياسية وسحق أى قوة أجنبية على دياره فادعى أن المهدى قد عينه لخلافة عثمان بن عفان التى رفضها السنوسى. وهذا يعنى أنه قد آمن بالمهدى ولكنه حارب أنصاره وعلى رأسهم خليفته وذلك لأنهم لم يقروا بخلافته. وقد كان ذلك ضرباً من الانشقاق ولكنه كان أقل خطورة من النبى الكاذب عيسى الذى ظهر في منطقة القلابات.

أمر الخليفة القائد عثمان آدم أن يسحق أبا جميزة وأتباعه بكل السبل وأن يكثف من الدعوة الدينية فى تلك المناطق بعد نهاية المعارك. ولم يكن عثمان آدم بحاجة لحثه علي ذلك، فقد كان يراقب بدقة أداء كل الواجبات الدينية التى أمر بها الله تعالى فى وسط جيشه، وكان حريصاً على أن يؤدى كل فرد صلواته وتلاوة راتب المهدي صباح مساء. وقد عكف هو نفسه على أداء النوافل، وكان يذكر رجاله دوماً بأن حب الغنائم أكثر من حب الجهاد فى سبيل الله هو أحد أسباب الهزيمة. وإذا هزم الأنصار فى معركة فذلك للهثهم وراء الغنائم والسبايا وعدم رغبتهم في الاستشهاد فى سبيل الله. لذلك فقد كان حريصاً على أن لاتخالف أفعاله أحكام الله. كان يُطبق التعاليم الدينية المذكورة فى القرآن فى أهون أمور الحياة . وكان يحس بأقل الأخطاء كأنها كبيرة من الكبائر. ويحكى عن صدقه وأمانته حكاية جاءت على لسان المهدى فقد عاد ذات يوم إلى منزله بعد أدائه لصلاة العشاء، فوجد بقرة مربوطة أمام باب منزله فاستغرب لوجودها فى هذا المكان فذهب مسرعاً لوكيله محمد بشارة الذى قال له:

- نحن أخذنا لك هذه البقرة من خمس الخليفة عبد الله حتى تشرب من لبنها.

فسأله عثمان آدم:

- هل أذن لك الخليفة بذلك؟.

فرد قائلا:

- انه لن يمانع أن يعطيك البقرة. فقال له عثمان آدم:

– وكيف عرفت ذلك ؟

ورفض الموافقة على أخذ البقرة وأمر بإعادتها إلى بقر الخليفة ومنع دخول أى بقرة إلى منزله [١٩].

كان عثمان آدم شديد الكرم. كما كان فى رسائله للخليفة يجد العذر لمن كانوا حوله ويمدح مزاياهم وحماستهم للدين. وقد كان متشدداً على نفسه متساهلاً مع الآخرين، فخلال كل حملاته ضد أبى جميزة وأتباعه لم يقترب أبداً من إمرأة. كما كان زاهداً فى أكله، خشن الملبس، مقبلاً على كل ما يرضى الله. كان يصف أبا جميزة بالتائه الضال، وأنه ليس متمرداً على المهدية فحسب بل كافر ملحد يجب على المؤمنين أن يرفعوا السيوف فى وجهه. وأن من يقتله فستكون الجنة مثواه. عندما تحرك جيش أبى جميزة إلى الفاشر تجمعت قوات المهدية حول عثمان آدم وكان عليهم أن يمنعوه من الدخول إلى الفاشر مهما كلفهم ذلك من ثمن. أما الفور تحت قيادة أميرهم أبى الخيرات وقبائل أخري فقد كانوا يسعون للانضمام لأبى جميزة فأرسل عثمان آدم عليهم ابنى كركساوى اللذين عرفا بمهارتهما فى فنون القتال واستعمال الأسلحة وقد تمكنا من رد جيوش الفور بعد أن فقدا كثيراً من رجالهما وذخائرهما.

لقد أصيب جيش أبى جميزة بوباء الجدرى الذى ألحق بهم خسائر كبيرة، وكان من ضمن ضحاياه أبو جميزة نفسه الذى توفى تاركاً قيادة جيشه لأخيه ساغة، الذى خاض معارك ضارية ضد الأنصار، تأرجحت خلالها كفة النصر بين الفريقين، ثم كان النصر حليفاً للأنصار وقد قتل ساغة وأهم حلفائه فى ٢٢ فبراير ١٨٨٩م عند سفح الهضبة التي تقوم عليها الفاشر. وقد كانت خسائر هذه المعارك كبيرة لكلا الطرفين.

انتهز عثمان آدم فرصة هذا الانتصار العظيم فحرك قواته نحو سلاطين الغرب الذين أيدوا أبا جميزة وكذلك نحو الذين وقفوا على الحياد تجاه ذلك الخلاف. وقد جهز جيشه من أجل التحرك نحو وداى إلا أن تفشى وباء التهاب الرئة الحاد «أبودوم» بين أفراد قواته قد منعه من ذلك. وقد أصيب عثمان آدم نفسه بذلك الداء. كما أصيب به نصف جيشه مما اضطره للعودة إلى الفاشر من أجل الراحة. وكتب رسالة أخيرة إلى الخليفة طمأنه فيها على حالة قواته وعبر عن شوقه لرؤياه مرة أخرى. ولكن وبعد أيام قليلة من رسالته تلك بدأ يحس باستفحال هذا المرض فى جسده وأنهكه السعال فلم يستطع مواصلة الرحلة راكباً، فعاد محمولاً على

نقالة إلى الفاشر. وظل بعدها يصارع الموت لمدة ثلاثة أيام وأصحابه من حوله وعيونهم دامعة. وقال لهم رغم أنه كان يفضل الموت في ساحة الوغى، إلا أن فى الموت بشارة خير لأن الله قد وعد بالجنة للذين يقاتلون من أجله. وفى اليوم الرابع بعد الظهر بعد أن قدم النصح لأصحابه نطق بشهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله [٢٠].

توفى ودفن بداخل منزله بالفاشر حسبما طلب قبل وفاته. ومات بجبته التى أرسلها إليه الخليفة عبد الله والتى كان يرتديها فى المعارك العسكرية. وأخفى أصحابه خبر وفاته مخافة الاضطرابات التى قد يحدثها المتمردون وأرسلوا رسائل إلى قادة الحملات وهم محمد بشارة وسليمان أحمد أكرت وطلبوا منهما الحضور بقواتهما إلى الفاشر، وكتبوا إلى الخليفة وأخبروه بهذا الخبر الأليم [٢١]. بكى الخليفة عندما قرأ هذا النبأ، فقد كان يحب عثمان آدم حباً شديداً ليس لصلة القرابة التي تربطه به فحسب وإنما لأنه كان كذلك قائداً محنكاً يعتبر موته فقداً عظيماً للدولة. كان عثمان آدم من أعظم أمراء المهدية، وخصاله الإنسانية السمحة قد أهلته لنيل احترام الجميع ، فقد كان زعيماً يشار إليه بالبنان، وكان اسم «جانو» الذي أطلق عليه ويعنى الزعيم الحقيقى فى لغة الفور ينطبق عليه اسماً على مسمى [٢٢].

(١) محمود عبد القادر عم المهدى الذي عينه في البداية عاملاً على قدير عام ١٨٨٢م ثم على الأبيض عام ١٨٨٣م فمكث بها حتي نهاية عام ١٨٨٥م. بعدها عينه الخليفة عبد الله عاملاً على دنقلا ولكنه لم يتسلم هذه القيادة وقد قتل في نهاية نفس العام بجبال النوبة على يد الجهادية المتمردين من الأبيض. وكانوا قد تمردوا عندما كان محمود عبد القادر بأم درمان ، فحاول محمود عبد القادر اخضاعهم من جديد بالقوة ولكنه قتل هو ومعظم أفراد قواته في العشرين من ديسمبر عام ١٨٨٥م.

(٢) قبيلة الكبابيش من أكبر قبائل كردفان، وهى قبيلة بدوية تعتبر من أغنى القبائل وأكبر مربى الجمال في السودان. لهم صلات تجارية وثيقة مع مصر.

(٣) كان زعيما الكبابيش في فترة المهدية هما ابنى فضل الله سالم ، التوم وصالح وبعد الاستيلاء علي الأبيض أمر المهدى بقتل التوم بتهمة التعاون مع أعداء المهدية فحمل أخوه صالح السلاح ضد المهدية انتقاماً لمقتله. وقد ناضل لمدة سنتين تقريباً ومعه أفراد قبيلته وهزم أخيراً وقتل في شهر مايو عام ١٨٨٧م.

(٤) سليمان أكرت أمير جعلى وقائد إحدى الرايات، كان وكيلاً لعثمان آدم، وكان على رأس إحدى الحملات التى أرسلت ضد فضل الله سالم، كما شارك في حملات كثيرة مع عثمان آدم على دارفور وقد ذكر اسمه كثيراً في الرسائل التي كان يتبادلها عثمان آدم والخليفة عبد الله – المهدية ١/١١ و ١/١٢ .

(٥) سيماوى تمساح زعيم قبيلة أولاد حامد التى كانت علي عداء مع الكبابيش عرف باسم «جريجيره» ثم عرف بعد ذلك باسم «قريقر» (Grieger) وهو الاسم الذى أطلقه عليه سلاطين (هولت ، ذكر سابقاً) الدولة المهدية في السودان (١٨٨١ – ١٨٩٨) (The Mahdist State Sudan1881 -1898) أكسفورد الطبعة (٢) ، ١٩٧٠م ، ص ١١٥.

(٦) يوسف بن ابراهيم محمد الحسين آخر سلاطين الفور. عين حاكماً على الفاشر ضد سلطة المهدية. وقد ساعدته بعض قبائل الفور التي أعلنت سخطها علي المهدية. حارب لأكثر من عام وهزم أخيراً في عام ١٨٨٨م. وقتل على يدى أحد قواد عثمان آدم وهو الختيم موسى وأرسل رأسه إلى أم درمان.

(٧) محمد وكرم الله الشيخ محمد أحمد كركساوى. كان محمد أميراً على شاكا وكرم الله أميراً على بحر الغزال التى غادرها عام ١٨٨٥م بأمر من الخليفة وقد قاتل كرم الله وأخوه محمد بجانب عثمان آدم في كل حملاته في الغرب. كما حاربا من بعده تحت راية أحمد على ثم تحت راية أخيه حامد.

وجرح كرم الله فى منطقة فركة كما جرح كذلك فى موقعة كررى. ثم عاد إلى الفاشر بعد سقوط الدولة المهدية وقد أعدمه السلطان على دينار فى عام ١٩٠٣م بحجة أنه يدبر مؤامرة ضده «الاستخبارات السودانية» تقرير رقم ١١٢، نوفمبر ١٩٠٣م ، ص٤ –٥.

(٨) بازنجر: بازنجر اسم أطلق على قوات تجار الرقيق والتى تتكون من القبائل الزنجية. وهذا الإسم ينسبه البعض إلى قبيلة زنجية و ينسبه البعض الآخر إلى المارشال بازين الذى قاد بعض القبائل السودانية الزنجية التى حاربت فى المكسيك، والبازنجر اسم أطلق علي الجنود السودانيين الذين كانوا يعملون فى الجيش وكانوا

في الغالب من العبيد المحررين، وبنسبه ونجت باشا إلى اسم قبيلة كان الزبير باشا يختار جنوده منها لاصطياد العبيد. وفي وثائق المهدية يقصد بهم على وجه التحديد قوات كرم الله وأخيه محمد.

(٩) إحدى قبائل البقارة من أغنى القبائل في جنوب شرق دارفور.

(١٠) إحدى قبائل البقارة في جنوب شرق دارفور.

(١١) قبيلة عربية تعيش في دارفور وكردفان. وكانوا في السابق بدواً رحلاً وأصبحوا الآن حضراً بعد استقرارهم في منطقة النهود في الحدود بين إقليمي دارفور وكردفان بالقرب من جبل بعشوم. وكانوا من أغنى مربى الجمال.وقد استقروا في منطقة أم شنقة بدارفور.

(١٢) «كلوا أموال الحمر فإنهم فاسدين وأنتم متبعين» تلك هي كلمات الرسالة التي بعثها عثمان آدم إلى الخليفة عبد الله في ٢٢ شعبان ١٣٠٥هـ الموافق ٤ مايو ١٨٨٨م.، مهدية ١٢/١ .

(١٣) البشارى ريدة أمير وقائد أحد أرباع قوات الغرب. وهو تعايشى من عشيرة الجبارات. صحب عثمان آدم في جميع حملاته ثم صحب محمود أحمد من بعده. قتل في معركة النخيلة عام ١٨٩٨م. فضل النبي أصيل أمير تعايشى وقائد أحد أرباع جيش الغرب. أرسله محمود أحمد عام ١٨٩٣م إلى دار الجانقى على رأس حملة وقتل في معركة الجانقى أو الفرتيت عام ١٨٩٣م الموافق ١٣١٠ هـ . رسالة من محمود أحمد إلى الخليفة عبد الله في ١٩ رمضان ١٣١٠هـ الموافق ٦ ابريل ١٨٩٣م ، مهدية، ١٣/١١.

(١٤) الغزالى أحمد خواف الزعيم الوريث للتعايشة من عشيرة أولاد ستة، عارض دوما الخليفة عبد الله. وأبدى طاعته ظاهرياً ثم تآمر وسجن عام ١٨٩٠م. استطاع أن يهرب ثم قبض عليه وقتل عام ١٨٩١.

(١٥) العطا أصول من أمراء الشايقية وقائد أحد أرباع قوات الغرب. شارك في جميع حملات عثمان آدم ومحمود أحمد. قتل هو وجميع رجاله في معركة النخيلة في ٥ ابريل ١٨٩٨م.

(١٦) أمير وقائد أحد أرباع قوات الغرب. شارك في كل معارك عثمان آدم ومحمود أحمد. قتل على رأس ربعه في معركة النخيلة عام ١٨٩٨م.

(١٧) موسى المبارك الحسن، تاريخ دارفور السياسي ١٨٨٢ – ١٨٩٨م ، الخرطوم، بلا تاريخ، ص ١٦١ – ١٧٣.

(١٨) المصدر السابق ، ص ١٤٧ – ١٦١ .

(١٩) دفتر على المهدى ص ٧٥١، مهدية ٨,١٠/٧٠.

(٢٠) موسى المبارك الحسن، ذ،س،ص ١٧٣ – ١٨٠ .

(٢١) رسائل من الأمراء: البشارى ريدة والعطا أصول وعباس هتوت وعبد الحميد محمد .

(٢٢) لقب أطلق على عثمان آدم وهى كملة من أصل « داجو» وتعنى الحامى أو الحافظ أو الراعى ، وفى لغة الفور أخذت هذه الكلمة معنى قائد ، وقد أرسل إليه الخليفة ومنعه من أن ينادى بهذا الأسم وكتب له قائلا : «اسمك عثمان واسم والدك آدم » ، رسالة بتاريخ ١٤ صفر ١٣٠٤هـ الموافق ٢٢ نوفمبر ١٨٨٦م، مهدية ١/١١/.

حمدان أبوعنجة

حمدان بن حميدان، الذى اشتهر باسم ابنته عنجة، نشأ وترعرع فى كنف عائلة الخليفة عبد الله. كانت أمه منضلية أما أبوه فمن قبيلة البرقو وكان قد نشأ مع الشيخ محمد الذي أعتقه فيما بعد. انضم فى شبابه لقوات الزبير [1] عند إغارته على الرزيقات، فأبلي بلاءً حسناً إلى جانب الزبير وقتل عدداً كبيراً من الرزيقات حتى سقط أسيراً وحكم عليه مادبو [2] على، انتقاماً منه، بأن يحمل حملاً ثقيلاً ويسير به لمسافات طويلة، وعمل على إذلاله بشتى الطرق، فهو لايحتمل أن يقتل أبوعنجة العبد المعتوق أفضل رجاله وأشجعهم، بيد أن أباعنجة تمكن من الفرار والانضمام لسليمان بن الزبير [3] فقاتل معه فى كل حملاته وبقى معه حتى قبل سليمان الاستسلام، ففارقه حمدان حينئذ ولحق برابح فضل الله [4] وظل معه حتى سمع خبراً مدوياً، وهو أن المهدى، الذى طال انتظاره ووضع أهل الغرب فيه كل آمالهم، قد ظهر بالجزيرة أبا.

انطلق أبوعنجة يرافقه الزاكى طمل وبعض رفاقهما يبغون اللحاق بالمهدى، وأثناء سيرهم التقوا بيعقوب بن الشيخ محمد بن على الكرار يصحبه أهله، وقد كان كذلك فى طريقه نحو المهدى. ثم قابلوا محمد أحمد وهو فى طريقه إلى قدير، فبايعوه حتى الموت. وكانت بيعة التزم بها أبوعنجة وكل أهل الخليفة عبد الله طوال حياتهم.

كان أبوعنجة من أعظم أمراء المهدية، هذا إن لم يكن أعظمهم إطلاقاً.. وقد كان طويل القامة، أسود اللون، اشتعل رأسه شيباً وكذا لحيته نتيجة لبلائه فى الحروب، وكان يرتدى دوماً ملابس حمراء اللون، وقد عرف بين الجميع بأنه محارب بارع وصائد أفيال متمرس. هذا وقد توافرت فيه كذلك صفات أهلته لقيادة الرجال، الشيء الذي جعله محبوباً بين جنوده، مطاعاً فيهم، يواجهون المستحيل وهم تحت قيادته. لقد كان هو قدوتهم، وكان عادلاً، ذا بأس شديد، صارماً حازماً في كل ما يتعلق بنظام قواته، ولكن طيبة قلبه وفهمه للطبيعة البشرية كانا يخففان من قسوته. كان حمدان مؤمناً إيماناً مطلقاً بالإمام المهدى وكان يكن ولاء للخليفة عبد الله وإخلاصاً شديداً مصحوباً بمودة عميقة، فقد كان الخليفة بالنسبة

إليه هو ظل الله على الأرض، وهو الملجأ والملاذ في محن الدنيا ومصاعبها وهو الذى يكون الدليل يوم القيامة لأولئك الذين تركوا الدنيا واستجابوا لندائه، لقد كان حمدان فى طاعته تجسيداً حياً لأمر المهدى، والخليفة من بعده. كان لهما كالجنازة بين يدى غاسلها.

تميز أبوعنجة، كذلك، بصراحته، وأمانته، و اخلاصه لكلمته، فمتى وعد وعداً التزم به . ولقد كان، باختصار، ذا جرأة تفوق حد الوصف، وحزم لايتزعزع، وصبر عند الملمات وقد جعلت له كل هذه الصفات مكانة خاصة لدى الخليفة عبد الله.

عند حصار الأبيض، عام ١٨٨٢م، قرر المهدى، استجابة لنصيحة الخليفة، استعمال الأسلحة النارية. وقد كان المهدى، إقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يستعمل سوى الأسلحة البيضاء ويحتفظ بالأسلحة النارية التى حصل عليها فى مختلف المعارك فى قدير. وقد أقنعه الخليفة بأن الزمان قد تغير، ونصحه بتكوين راية تضم بعض الجنود السابقين وأغلبهم من قبائل جنوب السودان الذين كانوا قد عملوا فى صفوف الجيش التركى قبل أن يأسرهم الأنصار ونصحه كذلك بأن يعهد بقيادة هذه الراية لحمدان أبى عنجة.

كان أبوعنجة يتمتع، في الواقع، بمعرفة تامة بفنون القتال، يجيدها بمهارة نادرة، ويعرف كيف يستخدمها مستفيداً من الظروف والبيئة وأخطاء العدو وكان خبيراً كذلك بحرب العصابات وحيلها، وملماً بطرق الحرب المكشوفة. وهكذا تولى أبوعنجة قيادة الجهادية، فملك زمام أمرهم بين يديه ولم يحدث، طوال حياته، أن تمرد جنده عليه، بل كانوا يطيعونه طاعة تامة.

يحكى أن أباعنجة عندما تحرك إلى الجهة الشرقية أمر الجهادية بترك النساء والأطفال خلفهم، فأطاعه الرجال على مضض، ثم جمع الأمير النساء وأعطاهن كميات كافية من الذرة والملابس وبعض المال لتغطية نفقاتهن أثناء غياب أزواجهن، موكداً لهن أن غيابهم لن يطول، فأطعن أمره. وتحرك أبوعنجة برايته، وبعد قليل لحقت به النساء واعترضن طريقه محتجات على هجرهن، فقال لهن الأمير الذي أخذ يستشيط غضباً:

– ألم أعطكن ما يكفى لتأمين حياتكن من طعام وكساء، أثناء غيبة الرجال التى لن تطول بإذن الله؟

– فأجابته النساء:

– نعم، بارك الله فيك على فضلك وكرمك فتساءل حمدان:

– ولماذا الشكوى إذاً؟ أرجعن ولاتعطلن سير الجيش. فتهامسن بينهن، ثم تقدمت أكثرهن جرأة وأمسكت بلجام حصان الأمير وقالت له:

– سيدى، نحن لسنا بحاجة إلى طعام ولا كساء ولكننا نحتاج إلى هذا وأشارت إلى بطنها، موضحة ما ترغب فيه هى ورفيقاتها، فانفجر أبوعنجة ضاحكاً وقد ذهب غضبه وقال لها:

– لتهدئة ظمأكن، سخن الماء وضعنه على المكان المطلوب. ولكن المرأة هتفت قائلة:

– هذا يزيدنا عطشاً بدلاً من أن يخففه.

فازداد أبوعنجة ضحكاً وقد انهزم أمام هذه الصراحة، وسمح للنساء بمرافقة الجيش. ورغم أن وجود النساء كان يسبب عدداً من المشاكل للجيش، بيد أن أباعنجة كان يدرك أن الرجال ، سيقاتلون بصورة أفضل عندما يكون عليهم أن يحموا نساءهم وهن يراقبنهم أثناء المعركة (٥).

فى شيكان ظل أبوعنجة يناوش جيش هكس ومنعهم من الوصول إلى موارد المياه، مضيقاً الخناق باستمرار على أجنحة جيشهم. وعند وصول المهدى إلى سهل شيكان فى الرابع من نوفمبر ١٨٨٣م قام أولاً باستعراض جميع الرايات وخطب فى المقاتلين فوعظهم ووعدهم بالنصر. ثم أقام معسكره وقد أجل المعركة إلى اليوم التالى. ولم تتوقف المناوشات بين جيش العدو وجيش الأنصار. هاجم أبوعنجة أحد أرباعهم وأصيب حصانه بجرح قاتل فسقط تحته، فتخلص أبوعنجة بسرعة من ركابه، وانطلق شاقاً طريقه بحد سيفه وسط الأعداء فاستولى على حصان بعد أن قتل صاحبه وواصل القتال حتى انسحب العدو إلى زريبته بلا نظام. اتخذ حمدان عند ذلك موقعاً أمام الزريبة وقسم رايته إلى ثلاث مجموعات فوضع إحداهن علي يمين الزريبة والأخري علي يسارها والثالثة أمامها، وكل مجموعة تحت قيادة أحد الأمراء ، كما وضع بعض القناصة على رؤوس الأشجار المحيطة بالزريبة (٦).

وعند الفجر عقب أداء الصلاة، أعطى المهدى الإشارة ببدء المعركة . قام الأمير عبد الرحمن النجومى الذي أوكل له المهدى قيادة الجيش بتوزيع الرايات في شكل دائرة حول جيش العدو. أما أبوعنجة الذي كان طوال الليل يطلق النار على كل من يتحرك داخل الزريبة

فقد هاجمها واستولى عليها فدارت المعركة وانتهت فى أقل من ساعة، وأبيد خلالها الأعداء إبادة تامة.

أرسل المهدى بعد ذلك حمدان أبا عنجة وعبد الرحمن النجومى إلى جبال النوبة التى ظلت تظهر شيئاً من العداء لدعوته وخاصة سكان جبل الداير. قاد الأميران جيشهما وغادرا الأبيض، وكانت مهمتهما الأولى هى دعوة سكان تلك الجبال للإيمان بالمهدية وأن يردوا كل ما سلبوه من القبائل المجاورة لهم، فإن رفضوا فعليهما مقاتلتهم حتى يستسلموا.

وقد كان سكان جبال النوبة المحتمين بجبالهم لايعرفون ديناً ولاقانوناً، ويغيرون باستمرار على السهل فيسلبون البهائم ويسبون النساء، ولم تتمكن أى سلطة من إخضاعهم ، فقد قاوموا قوات الحكومة التركية مثلما قاوموا قوات المهدية. وقد تبع القليل منهم المهدى بإخلاص، وظلوا يتحدون الجيوش المرسلة عليهم ويسخرون منها وهم محتمون بجبالهم التى كانت حصناً طبيعياً منيعاً لهم.

أرسل أبوعنجة لهم انذاراً، فتظاهروا بالاستسلام، ولكنهم كانوا يسعون لكسب الوقت حتى يهاجموا الأنصار. اكتشف أبوعنجة خيانتهم فانذرهم للمرة الأخيرة ثم هاجمهم وهزمهم ، وحصل الأنصار علي عدد من الأسرى والكثير من الغنائم التى أرسلوها للمهدى. وخضع النوبة عندئذ للمهدى ورجعوا بأسرهم إلى جبالهم. ولكنهم خانوا الأنصار بمجرد رجوعهم ولجأوا إلى بطن الجبال. فتبعهم أبوعنجة وود النجومى، وبعد مسيرة شاقة وسط دروب وعرة مليئة بالمخاطر تمكن الجيش من الوصول إلى قمة جبل تلجى الذى احتمى به المتمردون، وكان على رأس الجيش أبوعنجة ، وود النجومى على مؤخرته وهاجم أبوعنجة فى الحال. ودارت معركة عنيفة. ودوى الرصاص فيها من الجانبين. بقي ود النجومى فى المؤخرة للقضاء علي الفارين، فهاجمته مجموعة من النوبة الذين كانوا يكمنون فى طريق الجيش من الخلف، إذ كانوا قد تركوا الجزء الأكبر من الجيش يمر وانقضوا علي المؤخرة. وكانوا يريدون أن يقضوا عليها ثم يأخذوا أبا عنجة على غرة من الخلف. ولكنهم لم يضعوا فى حسابهم يقظة ود النجومى ومقدراته القتالية فقد شكل مربعاً فى الحال وتمكن هو وجنوده بسيوفهم وحرابهم من هزيمة المهاجمين ، وأجبروهم على الفرار، ثم انضم ود النجومى لأبى عنجة الذى استولى على حصون النوبة بعد أن قتل زعيمهم، ثم أرسل الأحياء الذين استسلموا إلى المهدى. وفى هذه الأثناء جاء أمر المهدى إلى أبى عنجة أن يلحق به فى

الرهد. فترك أبو عنجة الجيش تحت قيادة النجومى قاصداً الرهد ومعه بعض رفاقه. ثم أمره المهدى بالرجوع إلى جبال النوبة ودعوة كل الذين استسلموا للهجرة إليه بأسرهم وأموالهم. وأن يقاتل كل من لايستجيب أمره (٧).

انطلق أبوعنجة لتنفيذ أمر المهدى. ووجد معارضة شاملة وتمرداً من النوبة الذين رفضوا مغادرة جبالهم وتحصنوا بها وكثفوا من هجماتهم وزادوا مكامنهم ضد الأنصار. فقاتلهم أبوعنجة والنجومى بلا توقف ولاهوادة فقضيا على مكامنهم وحصداهم في مخابئهم.

لقد سادت روح من التفاهم التام بين القائدين. فقد كانا كلاهما مؤمن مخلص للمهدية، وكانا صنوين فى الشجاعة، يتمتعان بموهبة فطرية فى فنون القتال، وعلى الرغم من اختلاف أصليهما ومكانتهما الإجتماعية فقد جمع بينهما احترام مشترك، وقد جعلت منهما زمالة السلاح وصفاء القلوب من التنافس والحسد صديقين حميمين، فأزالا الفوارق بين عبد الرحمن النجومى السيد الجعلى الذى يفتخر بنسبه العربى ، وبين حمدان أبى عنجة المنحدر من عبيد المنضلة. وقد قوت الأخطار التى خاضاها معاً من عري هذه الصداقة فلم تنقطع قط. وقد ظل حمدان حتى موته يتبادل الهدايا مع عبد الرحمن النجومى. فشهد ماتبادلاه من أسلحة وخيول علي عمق العلاقة فى قلب الصديقين وقد أخذ أحدهما يزحف شمالاً نحو مصر بينما اتجه رفيقه شرقاً إلى الحبشة.

صمد النوبة في قتالهم للأنصار، كانوا يقتلونهم كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا. وظل القائدان فى حالة استعداد دائمة، تارة فى مقدمة الجيش وتارة فى مؤخرته، كان حمدان وعبد الرحمن النجومى يستعملان كل الحيل الحربية ويستفيدان من الامكانات الضئيلة التي توفرها لهما أرض المعركة محاولين التنبوء بتحركات العدو وخططه.

بدأ المهدى حينئذ زحفه نحو الخرطوم. ولكى يقضى على أمر التمرد بجبال النوبة، أرسل قوة لدعم أبى عنجة وود النجومى بقيادة موسى ود حلو الذى اشتهر، رغم تقدمه فى السن بشجاعته وخبرته بفنون القتال. فانضم لأبى عنجة وود النجومى وتمكن ثلاثتهم من اخضاع سكان جبل الداير وحلفائهم لبعض الوقت. وكان يمكنهم أن يواصلوا تهدئة الجبال لولا أنه جاءهم أمر المهدى يلزمهم بإحراق معسكرهم واللحاق به في الحال بالرهد (٨).

وصل ابوعنجة مع جيش المهدية إلى أبى سعد حيث أقام المهدى معسكره. وعلى حين

حاصر النجومى الخرطوم، قام أبوعنجة بمحاصرة قلعة أم درمان التى كانت تحميها كتيبة مصرية وقد حاولت عدة مرات الهروب والانضمام لغردون إلا أن أبا عنجة كان يحكم حصاره أكثر فأكثر. وكل محاولة لخروج الحامية كانت تكبد الطرفين خسائر فادحة. ونتيجة لنقص الطعام والذخائر طلب فرج الله راغب، قائد الحامية، الاستسلام ، فبايع الضباط والجنود المهدى وضُموا للجيش (٩).

عقب فتح الخرطوم، أرسل المهدى حمدان أبا عنجة إلى جبال النوبة التى ثارت مرة أخرى .غادر حمدان أم درمان في جمادى الأولى ١٣٠٢هـ فبراير ١٨٨٥م بعد شهر من فتح الخرطوم. ووصل أولاً لجبال تقلي التى كانت في حالة تمرد شامل وعاد سكانها إلى أعمال النهب والسلب، فدعاهم أبوعنجة إلي الاستسلام أولاً، وعندما رفضوا قاتلهم حتى هزمهم ، ثم أخذ فى تهدئة الأوضاع شيئاً فشيئاً في جبال النوبة.

ونما إلى علم أبى عنجة بعد ذلك أن الجنود السود، الجهادية، كانوا قد ثاروا فى الأبيض عقب ذهاب العامل محمود عبد القادر إلى أم درمان لمبايعة الخليفة عبد الله، وأنهم قتلوا معظم العرب الذين تركهم العامل بالمدينة وأنهم احتموا بعد ذلك بجبال النوبة. وبمجرد أن علم العامل محمود عبد القادر بهذه الأنباء سارع إلى الأبيض وتعقب المتمردين، وعندما وصل إلى مكانهم طالبهم بالانصياع لأمره وأمام رفضهم قام بمهاجمتهم، فاستشهد محمود وعدد كبير من رجاله وتمكن الباقون من النجاة والرجوع الى الأبيض.

عندما علم أبوعنجة بهذه الأحداث ، انطلق مسرعاً إلى المكان الذى لجأ إليه المتمردون ووعدهم بالعفو إن هم وضعوا السلاح واستسلموا، وأمام عنادهم وإصرارهم على العصيان، هاجمهم أبوعنجة، فجاء بعضهم مستسلمين، بينما واصل الباقون القتال حتى أبيدوا عن بكرة أبيهم ، وقطع حمدان رؤوس قادتهم وأرسلها إلى الخليفة الذي أمر بعرضها فى السوق، ثم دفنت بعد ذلك.

كلف الخليفة حمدان أبا عنجة بإدارة الأبيض حتي يعين عليها عاملاً جديداً، وغادر أبوعنجة جبال النوبة لفترة موقتة فأتى إلى الأبيض التي حكمها حتى وصل عثمان آدم، ورجع أبوعنجة إلي جبال النوبة مواصلاً جهوده في تعزيزه السلام.

فى بداية عام ١٨٨٦م، بعد أن استنفد محمد خالد زقل كل حججه، تحرك ببطء نحو

الخليفة لمبايعته فكتب الخليفة سراً إلى حمدان طالباً إليه مغادرة جبال النوبة وملاقاة محمد خالد زقل قبل خروجه من كردفان وأن يطلب إليه تسليم قوات الرايتين الزرقاء والخضراء اللتين يتكون منهما جيشه بالإضافة للجهادية بأسلحتهم وذخائرهم. فإن رفض الأمر فعلى أبي عنجة أن يقبض عليه ويقيده بالسلاسل ويرسله إلي أم درمان تحت حراسة مشددة (١٠).

قابل أبوعنجة محمد خالد في الأبيض، وأمام رفضه الاستسلام قبض عليه وحبسه في سجن الأبيض لمدة ستة أشهر قبل أن يرسله إلى الخليفة. وقبل أن يغادر أبوعنجة الأبيض إلى جبال النوبة إثر انتهاء مهمته، لم ينس أن يأخذ بثأره من مادبو زعيم الرزيقات، هذا الذى أذله وأهانه فى الماضى. وقد أرسله إلى أم درمان مع ابنى كركساوى. وخوفاً من أن يعفو عنه الخليفة فقد كتب حمدان طالباً إلي الخليفة إعدامه، ثم اعتذر عن طلبه هذا فيما بعد. كتب الخليفة إلى أبى عنجة يشكره علي حسن صنيعه وأشاد بتوقعه لحكمه (١١). أما مادبو فقد صاح وهو فى طريقه لينفذ عليه حكم الإعدام قائلاً لأبى عنجة:

– ليس أنت أيها العبد الحقير الذى تقتلنى، لكن هو الله، وأنا لا أتضرع لك بالرحمة ولكنى أطالب بالعدل وليس من الممكن أن يصبح عبد مثلك يوماً شريفاً، فأنا مادبو وكل القبائل تعرفنى (١٢). وعاد أبوعنجة إلى جبال النوبة بعد أن انتقم لنفسه.

وأمره الخليفة في نوفمبر ١٨٨٦م بالتنسيق مع ود النجومى الذى كان فى دنقلا ليواجها معاً تمرد الكبابيش فى الجبهة الشمالية الغربية. وقد صدرت أوامر صارمة لقبائل المنطقة تمنعهم الاتصال بالكبابيش وتمنع تزويدهم بالمؤن أو مساعدتهم. وبقى أبوعنجة مواصلاً عملياته الحربية حتى ابريل ١٨٨٧م حين استدعاه الخليفة إلى أم درمان من أجل إرساله إلى الجبهة الشرقية. عندئذ غادر أبوعنجة جبال النوبة آخذاً معه كل قواته بعد أن أخضع الجبال، هذا إن لم تكن قد هدأت تماماً. وتركها تحت إدارة عثمان آدم، عامل كردفان.

وقد جمع بين عثمان آدم وأبى عنجة ود مشترك يضاف اليه إحترام وتوقير من قبل العامل الشاب تجاه أبى عنجة الذى يكبره سناً. وكان عثمان آدم عندما يواجه مسائل عسيرة أو شائكة يلجأ لأبى عنجة لاستشارته. واستمرت مراسلاتهما حتى وفاة أبى عنجة. وقد تبادل أبوعنجة الهدايا مع عثمان آدم كما كان يتبادلها مع ود النجومى. وقد تحدث عثمان آدم فى رسائله للخليفة عدة مرات عن حصان أسود أهداه له أبوعنجة، وقد احتفظ به حتى مرض الحصان ومات، فكتب رسالة حزينة إلى الخليفة يتحدث فيها عن فقده لهدية والده

أبي عنجة. وكتب له الخليفة معزياً [١٣]، وكانت تلك آخر رسالة من عثمان آدم قبل أن تخطفه يد المنون.

وصل أبوعنجة إلى أم درمان في نهاية أبريل ١٨٨٧م وأعد له الخليفة استقبالاً حافلاً، وأقام معسكره جنوب أم درمان. أقيمت عرضة كبيرة شاركت فيها القوات المرابطة بأم درمان، وظهرت فيها قوات أبى عنجة وهى تخطر تحت رايتها فى نظام تام. ومكث أبوعنجة فى أم درمان لبعض الوقت ثم غادرها في نهاية سبتمبر متجهاً إلى جبهة الحبشة.

قام الخليفة بمرافقة الجيش إلى خارج أم درمان كعادته حتى عبر النيل وخطب فى الجنود واعظاً ومذكراً بتعاليم الإسلام، ودعا الله أن ينصرهم بعد أن أمرهم بتقوى الله وخشيته ثم ودع أبا عنجة وعاد أدراجه إلى أم درمان. وزع أبوعنجة جيشه إلي عدة وحدات تحت قيادة وكلائه حتى لايتزاحم الجنود حول موارد المياه. وقد كان الناس يستقبلونه حيثما حل بالترحيب والتوقير، وكان كل من يأتى إليه متظلماً يصدر عنه راضياً بحكمه. وقد كان في عام ١٨٨٥م يعلم الناس أمور دينهم في جبال النوبة ،فنال رضا المهدى بذلك، وفعل الشىء نفسه وهو فى طريقه إلى الشرق.

كان أبوعنجة يتمتع بإيمان عميق وبحب مصاحبة علماء الدين والفقهاء، وعندما يكون فى أم درمان يلازم مجالسة الشيوخ ويتابع دروسهم فى تواضع جم. كما كان شديد الحرص على التزام جنوده بواجباتهم الدينية، ويعاقب فى الوقت المناسب كل من يقصر فى أداء الصلاة أو غيرها من فرائض الإسلام.

كان أبوعنجة آخر من غادر الجزيرة مع بقية جيشه. وكان قد أرسل، بأمر من الخليفة، بعض الوحدات بقيادة عبد الله إبراهيم [١٤] والزاكى طمل لإخماد تمرد قبائل رفاعة الهوى. وقد لحقت به هذه القوات عقب هزيمة تلك القبائل، فأرسلها إلى القضارف التى وصلها هو نفسه فى نوفمبر ١٨٨٧م. وبقى لعدة أيام فى القضارف ثم غادرها متجهاً إلى القلابات. ووجد جيشه كله فى عطرب على بعد عدة أميال من القلابات، فقاد الجيش ودخل المدينة بعد ساعات قليلة حيث استقبله يونس الدكيم [١٥] الذى كان عاملاً على القلابات، والذى كان على حمدان أن يتولى معه إدارة الجيش والمدينة.

وعقب استعراض قواته، أقام أبوعنجة معسكره فحدد لكل قبيلة تحت راياتها مكاناً محدداً

ونظم الحياة فى المعسكر الذى سادت فيه روح الدقة والنظام.

وكان أبوعنجة يرعي كل شيء ويسهر على راحة قواته المادية والروحية ، إلا أن الخلافات لم تلبث أن أطلت برأسها بينه وبين يونس الدكيم.

بمجرد وصول أبى عنجة إلى القلابات، ووجه بقضية دينية، حيث إن تكرورياً يدعى آدم محمد البرقاوى وينضوى تحت إحدى رايات الغرب، قد ادعى أنه نبى الله عيسى وقد آمن به عدد من الرجال والأمراء من قبائل تاما والبرقو والمناطق المجاورة لهم. وقد ورد فى السنة أن ظهور نبى الله عيسى يعقب ظهور المهدى. ولم يتمكن يونس الدكيم من القضاء علي هذه الفتنة سواء أكان ذلك ضعفاً منه أم كان تعاطفاً مع تلك الدعوة.

وما كاد أبوعنجة يصل إلى القلابات حتي قام بسجن مدعى النبوة ووكيله وكون محكمة لاستجوابهم. ثم كتب، هو ويونس الدكيم معاً، إلى الخليفة يطلبان حكمه فى أمر هذا الدجال ومن تبعوه، ولم يتأخر رد الخليفة: الموت للجميع.

ثم راجع الخليفة حكمه وأرسل بعد ثلاث ساعات من خطابه الأول، خطاباً آخر إلى أبى عنجة يأمره فيه بإعدام آدم محمد ووكيله فقط، وسجن الأمراء الذين تبعوه. ولكن عند وصول الرسول الثاني وجد أن أباعنجة قد أعدمهم جميعاً أمام الجيش، واعتذر للخليفة عن ذلك فيما بعد [١٦]، فرد عليه الخليفة حامداً له طاعته لأمره واهتمامه بوقف انتشار الكفر وسط الجيش.

تمكن أبوعنجة من تهدئة النفوس وتنبيه رجاله إلى الحذر من ظهور أى انحراف يمكن أن يضللهم ويبدل إيمانهم وذكرهم بما حدث لأبى بكر الصديق رضى الله عنه وظهور أدعياء النبوة، ودعاهم للإلتزام المطلق بأوامر الخليفة عبد الله وترك أمر قيادتهم له، لكى ينالوا رضا الله ونبيه ومهديه.

استعد أبوعنجة بعد ذلك للزحف نحو الحبشة. بيد أن الخلافات التي ظهرت منذ وصوله، بينه وبين يونس الدكيم كانت قد تفاقمت وأصبحت عداوة معلنة من قبل يونس ورفضاً لطاعة أبى عنجة. وكان الخليفة قد قال له بوضوح رغم أنهما يحكمان معاً، إلا أن اتخاذ القرار يرجع إلي أبى عنجة وأن على يونس أن يطيعه ويعينه ويأخذ برأيه فى كل الأحوال. فقائد الحملة بالفعل هو أبوعنجة. إلا أن يونس الدكيم لم يتمكن من قبول ذلك. فقد كان أبوعنجة فى نظره هو ذلك العبد الذى أعتقه الشيخ محمد بعد أن تربى فى داره. فكيف له، وهو يونس الدكيم،

التعايشى الحر أن يخضع ويذل طاعة لمولى من الموالى، وكان يعامل أباعنجة باحتقار ووقاحة ولايأبه لأوامره.

كتب حمدان أبوعنجة إلي الخليفة يصف سلوك يونس والضرر الذى يمكن أن يلحقه بقيادته، وتذكر بكلمات حزينة التوقير والإحترام الذى كان يحيطه به عثمان آدم والذى لم يتحول عنه قط. وأخيراً طلب من الخليفة أن يسمح له بإقامة معسكره في الصراف حتي يكون بذلك بعيداً عن يونس [١٧].

منعه الخليفة من ذلك بعد أن كان قد سمح له، فقد كان يحب أن تظل القيادة موحدة، وحمدان أبوعنجة وحده هو القائد العام لجيش القلابات ويونس هو مرؤوسه ويجب عليه أن يطيعه [١٨]. وكتب الخليفة خطاباً حاداً إلى يونس الدكيم مذكراً إياه أن المرء عند الله بإيمانه وعمله لا بجاهه وحسبه. وأمره مرة أخرى بحسن التعامل مع أبى عنجة وطاعته، ثم دعاه بعد ذلك إلى أم درمان وضمه إلى ملازميه.

وأصبح أبوعنجة بعد ذلك وحده وتمكن من الإعداد لحملة الحبشة بهدوء. وغادر القلابات فى التاسع من يناير ١٨٨٨م، وقسم جيشه لأربعة أرباع وجعل على كل ربع أحد كبار وكلائه من ذوى الخبرة الذين عركتهم المعارك وعركوها وهم: الزاكى طمل وعبد الله ابراهيم وعربى دفع الله وأحمد على. وكانت هذه الأرباع تتكون من الجهادية حملة البنادق والعرب المسلحين بالرماح والسيوف والخيالة الذين ينتمى معظمهم لقبائل البقارة على جناحى الجيش ، وفى الوسط يسير أبو عنجة وسط ملازميه.

غادر الجيش القلابات وشق الجبال التى تفصل البلدين. ويعطينا حمدان أبوعنجة وصفاً أخاذاً لرحلتهم المذهلة عبر المنحدرات الوعرة وما يحيط بها من هوات عميقة لا حد لها. واستمر الزحف لعدة أيام وسط صعوبات جمة.

ووصلوا أخيراً إلى السهل والتقوا بالعدو عند دومبيا، ودارت معركة عنيفة، كانت الغلبة فيها للأنصار بعد عدة ساعات من القتال وهرب الأحباش بلا نظام تاركين خلفهم الكثير من الغنائم.

واستمر أبوعنجة فى زحفه من غير أن يقابل العدو حتى وصل إلى غندار التى دخلها بلا قتال وبقى بها لعدة أشهر منتظراً العدو الذى لم يظهر له أثر. ثم رجع إلى القلابات.

ثم قام بحملة أخرى فى يونيو من نفس العام، ومرة أخرى انتظر ظهور الأحباش ولكن بلا جدوى، فقام بعد ذلك بحرق بعض الكنائس والأديرة وعاد أدراجه إلى القلابات.

كتب الامبراطور يوحنا الرابع إلى أبى عنجة طالباً السلام، فرد عليه أبوعنجة :

– ادخل فى الإسلام أولاً، ثم لنتحدث بعد ذلك عن السلام (١٩) .

وأثار هذا الرد غضب يوحنا، فتخلى عن فكرة السلام وقرر الزحف إلى القلابات ثم مطاردة الأنصار حتى أم درمان التى كان يحلم بتدميرها.

بدأ أبوعنجة فى الاستعداد للحرب مرة أخرى، وفى هذه الأثناء استدعاه الخليفة إلى أم درمان ، فجاءها ومعه عدد من أمرائه ورجالهم. فأعد لهم الخليفة استقبالاً رائعاً حاراً. وكان تشييد قبة المهدى قد بدأ، فكان أبوعنجة يحضر كل صباح للمشاركة فى البناء (٢٠). ويقضى بقية وقته، عندما لايكون مشغولاً بالشؤون العسكرية. بين يدى الشيوخ يرتشف من معين العلوم الإسلامية (٢١).

وكان عليه أخيراً أن يغادر أم درمان، وصحبه الخليفة حتى خرج من المدينة ثم ودعه ودعا له أن يحميه الله تعالى هو ورجاله وأن يكتب لهم النصر، ثم احتضن الخليفة أباعنجة للمرة الأخيرة ورجع إلى أم درمان منقبض الصدر تكتنف قلبه مشاعر غامضة.

إثر عودته إلى القلابات، شرع أبوعنجة فى تحصين المدينة وتقوية حصونها. ثم أصيب فجأة بالحمى، واستعمل لعلاجها الأعشاب التى كان يستعملها عادة، وربما أخذ جرعة زائدة أو إن جسمه قد أنهك بفعل المشاق والعمر (٢٢) فتوفى فى التاسع والعشرين من يناير ١٨٨٩م وبكاه الجميع: من أمراء وجنود وبكاه سكان القلابات وما حولها. وفجع الجميع فيه كأنما فقد كل منهم أقرب الناس إليه.

وجاءت الخطابات من كل أنحاء السودان من أمراء الرايات ومن زعماء الجهادية، من المقاديم والموالى إلى الخليفة تتحدث عن الفقد العظيم فى أبى عنجة بكلمات تقطر أسى فى بعض الأحيان. وكتب الجهادية الذين كانوا يعملون سابقاً تحت إمرة أبى عنجة والذين يعملون الآن تحت قيادة عثمان آدم إلى الخليفة قائلين:

«ركن الدين المحامى عن الإسلام والمسلمين حمدان أبو عنجة (...) فإنه قد دخل علينا من ذلك ما لايكون مثله الجرح بالسلاح» (٢٣).

ورغم أن إيمان عثمان آدم العميق جعله يقبل موت حمدان، إلا أنه لم يخف فجيعته، وقد عبرت رسالته للخليفة عن شعور بالأسى والمودة العميقة تجاه من كان يناديه «بوالدى»(٢٤) .

ومن الشمال جاء صوت ود النجومى، ممثلاً للأمراء الذين كانوا معه، وهو يرثى صديقه بكلمات تفيض حزناً على فقده.

أما الخليفة فقد كان موت أبوعنجة بالنسبة له مصاباً شخصياً مثلما هو مصاب عام للدولة. لقد فقد فى أبى عنجة الصديق الوفى المخلص الذى يعهد إليه بأسراره وأفكاره الخاصة، كما فقد فيه القائد العسكرى المهيب فى أعدائه، المحبوب لدى جنوده، الخبير بكل تكتيكات الحروب وخططها.

لقد كان أبوعنجة وحده ، من بين أمراء المهدية، الذى تمكن من رفع لوائها على بلاد لم يسبقه اليها أحد. وكان أشجع أمراء الدولة هذا إن لم يكن أشجعهم على الإطلاق.

وان لم يكن لأبى عنجة أن ينال الشهادة على أرض المعركة، فإنه نال شهادة من خطوا بدمائهم أن لا إله إلا الله، وحده لاشريك له.

وسستظل ذكراه باقية، طالما كان هناك رجال على أرض السودان، وستتناقل الأجيال ذكراه حتى قيام الساعة وسيحتل أبوعنجة، إن شاء الله، منزلته بين أصحاب النبى الذين أعطوا الإسلام هيبته وعظمة ضيائه فى العالمين.

(١) ولد الزبير باشا رحمة منصور عام ١٨٣٠م، واشتهر بتجارة الرقيق في بحر الغزال وبفتحه لدار فور عام ١٨٧٤م، توفى عام ١٩١٣م، وهو جعلى من النعماب.

(٢) مادبو علي، زعيم الرزيقات، انضم للمهدية في قدير عام ١٨٨٢م، وتمرد عام ١٨٨٥م على الخليفة عبد الله الذي أمر بالقبض عليه ، وقد اعتقله أبوعنجة بالأبيض عام ١٨٨٦م.

(٣) خلف سليمان بن الزبير باشا منصور والده بعد أن نفي الأخير إلى مصر، وقد دفعته الإقامة الجبرية التي فرضت على والده. وإجراءات محاربة تجارة الرقيق التي فرضها الإنجليز إلى الثورة على سلطة غردون وقتله جيسي باشا عام ١٨٧٩م.

(٤) ولد رابح فضل الله المشهور برابح الزبير عام ١٩٤٥م في إحدى ضواحي الخرطوم، ذهب إلى بحر الغزال وانضم لقوات الزبير باشا، ورافق بعد ذلك سليمان، بيد أنه رفض أن يتبعه عند استسلامه، واستولى بعد ذلك على إمارات باندا وبورنو، ثم قتله الفرنسيون عام ١٩٠٠م.

(٥) ر. سالمون.، The Story of Sheikh Abdullahi Ahmed Abu Gelaha قصة الشيخ عبد الله أحمد أبوجلاهة، السودان في مذكرات ومدونات، (SNRXXI,I) .

(٦) زلفو شبكان، أبوظبي، ١٩٧٦م ، ص ١٩٣ – ٢٠٢ .

(٧) إسماعيل عبد القادر الكردفاني ، سيرة ، ص ٣٠١ – ٣١٥ .

(٨) المصدر السابق.

(٩) شقير، ذ.س، ص ٨٥٤ والصفحات التالية.

(١٠) خطاب الخليفة إلى حمدان أبي عنجة بتاريخ ٦ جمادى الآخرة ١٣٠٤هـ / الأول من مارس ١٨٨٧م، مهدية ٢٥/١.

(١١) شقير ، ذ.س، ص ١٠٤٧.

(١٢) خطاب الخليفة الى عثمان آدم بتاريخ ١٤ ربيع الأول ١٣٠٨ هـ / ٢٨ اكتوبرر ١٨٩٠م، مهدية ١١/١.

(١٣) عبد الله إبراهيم أحد أمراء الجعليين، كان يقود أحد أرباع جيش الشرق تحت قيادة حمدان أبي عنجة والزاكي طمل، ثم أحمد علي وقتل بجانبه في عام ١٨٩٣ في معركة أقوردات.

(١٤) أحد أمراء التعايشة، كان عاملاً على الجزيرة والقلابات من عام ١٨٨٥م إلى ١٨٨٧م ثم عاملاً على دنقلا وبربر من ١٨٨٨م الى ١٨٨٩م عاش بعد المهدية، حيث أسر في أم دبيكرات وأرسل إلى رشيد ثم عاد إلى السودان واستقر في أم درمان حتى عام ١٩٣٦م.

(١٥) خطابات من حمدان أبي عنجة ويونس الدكيم بتاريخ ١٦ ربيع الآخر ١٣٠٥هـ / ١ يناير ١٨٨٨م. وخطاب آخر بتاريخ ١٨ ربيع الآخر ١٣٠٥هـ / ٢ يناير١٨٨٨م، مهدية ٢٦/١ .

(١٦) خطاب حمدان أبى عنجة إلى الخليفة بتاريخ ٦ جمادى الآخرة ١٣٠٥هـ/ ١٩ فبراير ١٨٨٨م ، مهدية ٢٦/١.

(١٧) المصدر السابق، ٩ جمادى الآخرة ١٣٠٥هـ /٢٢ فبراير ١٨٨٨م.

(١٨) نسخة من خطاب حمدان أبى عنجة إلى يوحنا الرابع فى جمادى الأولى ١٣٠٦هـ / يناير ١٨٨٩م.

(١٩) جهاد ، ص ١١٦.

(٢٠) يوسف ميخائيل ، ذ. س، ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢١) هناك عدة روايات تدور حول موت أبى عنجة، فيرى البعض أنه مات مسموماً بفعل جارية حبشية. ويتهم يوسف ميخائيل الخليفة بقتله، زاعماً أنه قد أرسل له جارية فى صحبة إمرأة عجوز هى التى وضعت له السم.

ويزعم آخرون أن حمدان قد مات منتحراً، وكل هذه الآراء قد جانبها الصواب ، فقد كان الناس فى ذلك العهد ذوى إيمان عميق يمنعهم من الانتحار. كما إن حمدان أبا عنجة كان قائداً عسكرياً مدركاً لمسؤولياته ولا يمكنه أن ينتحر قبيل هجوم الأحباش على جيشه. وكذلك أخطأ ميخائيل فى زعمه، فقد كان الخليفة شديد الثقة فى حمدان، الذى كان بدوره طوع بنان الخليفة، وقد كان بالنسبة له بالفعل كالجنازة بين يدى غاسلها ، ولو كان ما ذكره صحيحاً لتلقفه سلاطين واوروالدر وفوزى باشا وذكروه بكل سرور.

(٢٢) خطاب مقاديم الجهادية ، رؤوس المية ، يحمل ستة وخمسين اسماً، إلى الخليفة بتاريخ ٤ رجب ١٣٠٦هـ / ٦ ماس ١٨٨٩م.

(٢٣) خطاب عثمان آدم إلى الخليفة بتاريخ ٤ رجب ١٣٠٦هـ ./ ٦ مارس ١٨٨٩م.

عبد الرحمن النجومى

« لا والله لا أرجعن إلي الوراء إلا محمولاً علي الأكتاف . ماذا إذا عطشنا أو جعنا، فإنما نحن فى جهاد، فلنتذرع بالصبر والثبات حتى نفوز بالنصر أو بالشهادة.. » نطق ود النجومى بهذه الكلمات وهو يلوح بسيفه فوق رأسه وينظر إلى الحضور بعينين غاضبتين يتطاير منهما الشرر، فكان أن تحمس أولئك الذين كانوا في حالة تردد أو كانوا يتحدثون عن التراجع وانتظار الإمدادات التى أرسلها الخليفة، فعندما يكون القتال من أجل إعلاء كلمة الله فلا مجال للتراجع أو التردد، لأن الجزاء سيكون الأجر فى العالم الآخر، فكل أولئك الذين ماتوا من أجل نصرة دعوة الإسلام تحت راية المهدية واثقون من أنهم سيدخلون الجنة. وماذا تعنى الغنائم وفتح الأراضى المصرية نفسها لمن يتوقون لنعيم الجنة وملاقاة الحور العين، لقد عاهدوا قائدهم عبد الرحمن النجومى، وهم يلوحون بسيوفهم، على القتال خلفه وطاعته فى زحفه لفتح مصر بأمر الخليفة عبد الله بن محمد خليفة المهدى.

كان عبد الرحمن النجومى من قبيلة الجعليين، فرع العبدلاب، وكان أبوه النجومى قد ترك قريته مونيس القريبة من شندى فى عام ١٨٢٣م فاراً من حملة الدفتردار الإنتقامية [1] ضد الجعليين لقتلهم صهره اسماعيل باشا . لجأ النجومى إلى حلة الخوجلاب شمال حلفاية الملوك وتزوج حفيدة الشيخ خوجلى [2] فأنجبت له عبد الرحمن الذى نشأ وترعرع في حلة الخوجلاب ودخل خلوة جده حيث حفظ القرآن عن ظهر قلب ثم واصل دراسته على الشيخ محمد شريف نور الدائم [3] بصحبة محمد أحمد ، وكان قد اشتهر بلقب «فكى» عندما ترك الخلوة ليساعد والده الذى كان تاجراً متجولاً يعمل فى تجارة العاج وريش النعام . استقر عبد الرحمن فى الفششوية على النيل الأبيض [4] بالقرب من أبا وكان حينذاك فى الثلاثين من عمره، وكان رجلاً فاضلاً شديد التدين تشبعت روحه بإيمان عميق متأجج وكان ميالاً للزهد وله طاقة روحية عالية وكان قاسياً على نفسه، شديد التقشف ذا شجاعة لا تقهر وثبات أمام

المخاطر، وصبر عند الشدائد. كان إخلاصه مضرباً للمثل، كما كان راجح الرأى لا يتزحزح عن الكلمة التي يقولها وقد شهد له بذلك أعداؤه قبل أصدقائه، وكان كذلك مشهوراً بإنصافه وبحسه العميق بالعدالة والمساواة، ومن دلائل عدله أن القبائل التى كانت تضطر للخضوع كانت ترفض التسليم للأمراء وتكتب للمهدى مباشرة طالبة التسليم له فكان المهدى لثقته بالنجومى يبعثه لها لتبايعه وتسلم له.

كان عبد الرحمن النجومى من أوائل الذين آمنوا بمحمد أحمد بن عبد الله، المهدى المنتظر، حيث لحق به فى أبا بعد انتهاء المعركة مباشرة فى مساء يوم ١٢ أغسطس ١٨٨١م(٥)، ثم تبعه فى سيره الشاق إلى دار هجرته فى جبل قدير فى أطراف جبال النوبة. وصحب المهدى فى كل خملاته محارباً بلا توقف وكان يقاتل ببسالة حيثما أرسله المهدى، وقد تمكن وهو يحارب على رأس رايته من وضع خطة مع الخليفة عبد الله لمهاجمة شيكان وأبادوا بفضلها جيش هكس باشا، وقد تمكن مع صنوه فى المجد والشجاعة حمدان أبى عنجة من تهدئة أجزاء من جبال النوبة.

وقد عينه المهدى قائداً عاماً على قوات المهدية التى كانت تحاصر الخرطوم، وفور وصوله فى يوليو ١٨٨٤م كتب خطاباً إلى غردون يدعوه فيه إلى الإسلام وتسليم المدينة وكان قد ختم خطابه بهذه الكلمات التي تفيض عزة وكبرياء « اعلم أننى ود النجومى أمير أمراء جيوش المهدية الملقب بسيف الله المسلول وفاتح كردفان والداير وقد جئتك الآن بجيوش لا طاقة لك بها ومدافع لا قدرة لك على احتمالها فسلم تسلم ولا تسفك دماء العسكر والأهلين بعنادك، والسلام» (٦). ولجرأته كان أول من دخل الخرطوم عن طريق النيل ذى المسالك الخطرة، وبعد فتح الخرطوم أرسله المهدى لمحاربة الإنجليز وردهم عن شمال السودان.

كان ود النجومى فى المتمة حينما انتهى إليه نبأ وفاة المهدى وكتب له الخليفة عبد الله طالباً إليه الحضور إلى أم درمان، فرجع وبايع خليفة المهدى كما بايع المهدى من قبل. مات المهدى ولكن تظل المبادىء ثابتة فعلى الرغم من أنه كان أحد قادة الراية الحمراء تحت إمرة الخليفة شريف وتابعاً له إلا أنه لم يشك لحظة فى شرعية خلافة الخليفة عبد الله، وكان ود النجومى قد شهد خلافاً نشب بين الشيخ المنا إسماعيل والخليفة عبد الله فى اليوم التالى لفتح

الأبيض، وقف فيه المهدى بوضوح فى صف الخليفة عبد الله ووضح مكانته بجلاء، وكان عبد الرحمن ود النجومي أول الأمراء الذين وقفوا بين يدى الخليفة عبد الله ليبايعوه قائداً عاماً لجيوش المهدية وممثلاً للمهدى وخليفة له. تلك كانت نظرته للخليفة عبد الله ما تبدلها بغيرها قط، وعلى الرغم مما كان يشيع من وشايات وشائعات مغرضة، فما كان إخلاص ود النجومى للخليفة ليخمد، ولا كان ولاؤه له ليفتر وذلك مما كان يحفظه له الخليفة عبد الله.

فبينما أخذ الأشراف يتآمرون على الخليفة عبد الله فى عام ١٨٨٥م وعندما راودت الخليفة بعض الشكوك حول ولاء محمد عبد الكريم [٧]، عم المهدى، الذي كان يحاصر سنار منذ وقت طويل ، أرسل ود النجومى لمساندته وكان عبد الرحمن مكلفاً فى ذلك الوقت بصد الإنجليز عن إقليم دنقلا فتحرك فى الحال نحو سنار التى وصلها فى اليوم التالى لتسليمها فوجد المدينة قد تعرضت للنهب والفوضى فأعاد الأمور إلي نصابها وحافظ على النظام حتى جاءه أمر الخليفة بتدمير المدينة تدميراً كاملاً وإجبار سكانها على الإنتقال الى أماكن أخرى، وقد أثر على المهدى قوله فى سنار: «سنار فى الحقيقة سوق نار» [٨] فهى بذلك مدينة ملعونة يجب ألا يقيم بها من يؤمن بالله ورسوله ومهديه، وسكانها أنفسهم هم غنيمة لجند الله: أنصار المهدى وخليفته. عمل ود النجومى على تنفيذ هذا الأمر وأحرق المدينة وعندما دمرت غادرها على رأس قواته إلى أم درمان حيث دعاهم الخليفة لقضاء عيد الأضحى معه [٩].

كانت طاعة الخليفة عبد الله خليفة المهدى بالنسبة لود النجومى أمراً من الله. ففى عام ١٨٨٨م عندما أرسل الخليفة ابن عمه يونس الدكيم الى دنقلا لحسم الخلاف بين النجومى ومساعد قيدوم، قرأ ود النجومى عقب صلاة الظهر مكتوب الخليفة آمراً إياه أن يكونا كالجنازة بين يدي غاسلها، وفور الفراغ من قراءة الأمر نهض ود النجومى ملماً سيفه وحربته ثم نزع سكينه من ذراعه الأيسر ليضعها مع بقية أسلحته عند قدمى يونس الدكيم الذى كان جالساً بجانب المنبر فشكره يونس الدكيم قائلاً له:

– بارك الله فيك أنت ولد النجومى من أبكار المهدى عليه السلام ومن أعظم قوادنا المنتصرين – فضرب بذلك مثلاً رائعاً فى الطاعة حاز به على احترام الجميع حتى أولئك الذين كانوا يحسدونه ويتآمرون للتخلص منه خفية.

كان الخليفة قد عهد إلى النجومى بقيادة الجيش المكلف بفتح مصر تبعاً لرغبة الإمام

المهدى. وجه النجومى عدة هجمات على الحاميات المصرية التى كانت تعسكر فى منطقة حلفا، ثم حدث تنافس على القيادة داخل جيش ود النجومى ، فطلب من الخليفة أن يسمح له بالحضور إلى أم درمان حتي يعرض الموقف الذى كان فيه بدقة فاستقبله الخليفة واستمع إليه باهتمام ، فكلاهما كان يتمتع بإيمان متأجج. وكان المهدى قد وعد جيوشه بفتح العالم كما فعل رسول الله من قبل عندما وعد بالفتح وأكمله خلفاؤه. فكان الخليفة مقتنعاً بأن الأمر نفسه سيحدث وأن مصر ستسقط أولاً، على يدي النجومى وستتبعها القسطنطينية وأخيرا الأراضى المقدسة فى الحجاز التى كان الخليفة مكلفاً بتطهيرها وطرد الترك المارقين على حكم ربهم منها ،وكان النجومى يشارك الخليفة فى رأيه، فإما أن يرجع منتصراً أو أن يموت فى سبيل الله وحتى يؤكد قناعته هذه ولكى يقضى على تردد القلوب الواجفة قام بحرق منزله فى أم درمان، ثم تحرك على رأس جيشه وصحبه الخليفة حتى كررى، وما كان مقدراً لهما أن يلتقيا مرة أخري علي ظهر البسيطة لأن النجومى انتقل الى لقاء ربه قبل الخليفة.

كان جيشه قوياً وحسن الإعداد إلا أن المرض كان قد تفشى بين قواته بالإضافة إلى هروب بعض جنوده. لقد هزم جيش المهدى عداء القبائل النوبية والجوع والأوبئة وعدم وصول الإمدادات التى أرسلها الخليفة نسبة لبعد المسافة وتخلف وسائل الإتصال، كما كانت القبائل مستعدة للخيانة وكانت تفكر فى إيجاد وسيلة للتعاون مع الأجانب والإتصال بهم.

كان بإمكان النجومى الانسحاب والانتظار ولكنه لم يرد ذلك فقد كان محارباً فى سبيل الله وعندما يكون الزحف من أجل نصرة كلمته تعالى وملاقاة وجهه الكريم فلا مجال للتراجع حينئذ أبداً. أعطى ود النجومى إشارة البدء فشهدت قرية توشكى[١٠] المعركة الضارية التى قادها جند الله ضد الكفار من الإنجليز والمصريين وقد انضمت اليهم بعض القوات السودانية المعادية للمهدى.

كان ذلك فى الثالث من أغسطس عام ١٨٨٩م ، فاشتدت المعركة وحمى وطيسها وبينما كانت نيران العدو تحصد الأنصار كالمنجل الذي يحصد سنابل القمح، كان أحد الفرسان يقاتل بلا هوادة والرصاص يدوى من حوله، وظل صامداً حتي انطلقت رصاصة، مسددة أو طائشة، وأصابت حصانه فى مقتل ، فقفز ود النجومي على حصان آخر وواصل القتال

والرصاص يئز حوله من كل جانب ، وتشابكت السيوف والحراب حوله حتى أصابت رصاصة أخري حصانه فسقط تحته، ونهض ود النجومى فى الحال وكان مجروحاً لكنه واصل القتال حتى أصابته رصاصة أخري فسقط للمرة الأخيرة وأحاطت به مجموعة من المقاتلين فى الحال ووضعوه على جمل وأحاطوا به فى شكل مربع إحاطة السوار بالمعصم ليحموه من الأعداء الذين ظنوا أن هذا الجمل يحمل مدفعاً فأمطروه بوابل من الرصاص حتي قتلوا الأنصار عن بكرة أبيهم، وأصابت الجمل رصاصة مصوبة بمهارة فسقط سقطة لم يقم بعدها، وعندما اقترب الإنجليز وجدوا لدهشتهم الشديدة، أن الجمل لم يكن يحمل سوى جثة وعندما استجوبوا بعض الأسرى قالوا لهم «هذا هو أمير الأمراء عبد الرحمن ود النجومى»[11].

دفن الجسد باحترام فى المكان الذى سقط فيه شهيداً فى سبيل الغاية التي عاش من أجلها ومات من أجلها كذلك.

(١) محمد بك خرسو الدرملي الدفتردار صهر محمد علي باشا، كان يقود الجيش المصري المكلف بفتح كردفان وعندما علم بقتل الملك نمر لصهره إسماعيل باشا في شندى عام ١٨٢٢م رجع أدراجه وحرق المتمة وشندى وكبوشية والدامر وقتل كل سكانها ثم تعقب الملك نمر حتي لحق به في البطانة وهزمه إلا أن الملك نمر تمكن من النجاة ورحل الى الحبشة مع بعض رجاله حيث رحب به هناك، ورجع الدفتردار إلى مصر وتوفى في عام ١٨٣٣م.

(٢) الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن بن إبراهيم صوفي سوداني شهير ولد في توتي عام ١٦٤٣م وتوفى في عام ١٧٤٣م حيث دفن في حلة خوجلي وأصبح قبره مزارة للناس.

(٣) الشيخ محمد شريف نور الدائم شيخ الطريقة السمانية، كان أستاذ محمد أحمد قبل أن يعلن مهديته، وقد نشب بينهما خلاف طرد الشيخ على إثره تلميذه من الطريقة ثم أسره الأنصار بعد فتح الخرطوم حيث انضم للمهدية بعد ذلك، توفى عام ١٩٠٨م.

(٤) مدني بهذه المعلومات أحمد محمد عبد الرحمن النجومي، حفيد عبد الرحمن النجومي.

(٥) جهاد ، ص ١٧ .

(٦) شقير ذكر سابقاً، ص ٨١٨ .

(٧) عمّ المهدى وكان يقود الجيش الذى حاصر سنار، وتآمر فيمابعد على الخليفة عبد الله الذى أمر بإعدامه في عام ١٨٩٢م.

(٨) خطاب الخليفة إلى محمد عبد الكريم بتاريخ ١٢ ذى القعدة ١٣٠٢/٢٣ أغسطس ١٩٩٥م، وخطاب الخليفة إلى عبد الرحمن النجومي بنفس التاريخ، دفتر الصادر ١١.

(٩) المصدر السابق.

(١٠) عبد الوهاب احمد عبد الرحمن، توشكى ، الخرطوم ، ١٩٧٩، ص ٧٦.

(١١) المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

الزاكى طمل

كان وقع الصاعقة على مدينة القلابات وقوع ذلك الخبر وانتشاره، أن حمدان أبا عنجة يحتضر، لقد استدعى الأمراء قادة الرايات الذين يعملون تحت رايته وإمرته، فأحاطوا بفراش أبى عنجة الذى ذكر لهم وصاياه الأخيرة رغم الآلام التي كانت تعتصره:

– انى ذاهب للقاء ربى، لقد اقتضت مشيئته أن أترك جيشى وهو يواجه العدو وأن أترك أرض الإسلام وهى مهددة بالكفار، وأن أموت على فراشى كما تموت النساء، وليس على ساحة الوغى، ممتشقاً سيفى كما يموت الرجال. أناشدكم للمرة الأخيرة أن تطيعوا أوامرى، إنى قد أمرت عليكم أخاكم الزاكى طمل، اتبعوه وأطيعوا أوامره كما اتبعتمونى وأطعتم أوامرى. واعلموا أن الله سينصركم ما اجتمعت قلوبكم .

وصمت أبوعنجة وقد بلغ به الجهد غايته ثم فاضت روحه الى بائرها [١] .

انحدر كل من أبى عنجة والزاكى طمل من قبيلة المنضلة [٢]. ولد الزاكي طمل برهيد البردى وشب وترعرع فى دار الخليفة عبد الله. كان فى طفولته يرعي أبقار العائلة ويتنقل بها فى المراعى، وبذا فقد تربى منذ نعومة أظافره على مشقة الحياة البدوية، وكان فى صباه مولعاً بصيد النعام والزراف ثم بصيد الأفيال، وما لبث أن أصبح صياداً حاذقاً وانضم الى جماعة سليمان الزبير، حيث التقى بحمدان أبى عنجة الذي كان قد تربى مثله فى دار والد الخليفة عبد الله. ورغم فارق السن بينهما فقد توطدت عري صداقة وثيقة بين الشاب الزاكي طمل وحمدان أبى عنجة. وتبع الزاكى حمدان عندما ترك سليمان بن الزبير وانضما معاً لرابح فضل الله. ثم وصلهما نبأ ظهور المهدى فى النيل الأبيض. فانضما كلاهما ليعقوب وأقاربه وهم فى طريقهم إلى قدير. وعندما وصلوا إلي منطقة تقلى بايعوا محمد أحمد وأقروا بأنه المهدى المنتظر، وانضوى حمدان والزاكى تحت راية الخليفة وقاتلا بجانبه، وظل الزاكى مرافقاً لحمدان الذى تولى قيادة الجهادية إبان حصار الأبيض ولم يفارقه أبداً.

كان الزاكى طمل طويل القامة، نحيف الجسم، متناسق الأعضاء، أسمر اللون، مائلاً للسواد، عالى الجبين، أقنى الأنف، طويل العنق، ذا شاربين طويلين ولحية خفيفة، جميل

الطلعة يعلو وجهه شيء من الصرامة والأنفة. تميزت شخصيته بالشدة والحزم، وسرعة الغضب، وله طاقة هائلة ونشاط متدفق. كان يتمتع بثقة شديدة بنفسه، كما كان جرىء التفكير ثاقبه، شديد الإخلاص، وشجاعاً فى الملمات. ومع إقدامه وإخلاصه فى أفعاله، كان يضنيه الطموح، فلم يكن يقنع بما لديه مطلقاً، بل يسعي دائماً للمزيد. وعرف عنه ميل واضح للتفاخر والتباهي. كان رجل حرب لايشق له غبار، كان يتميز بالحزم والحذر فى تحركاته، والسرعة فى اغتنام الفرص والاستفادة من هفوات العدو، فكان فى نظرة خاطفة سديدة يلم بموقف العدو ويهجم بسرعة وكفاءة. وقد كان كذلك مؤمناً ملتزماً لا يفرط فى واجباته الدينية، كما كان مخلصاً للخليفة عبد الله خليفة المهدى وظل الله فى الأرض.

وقد اكتشف حمدان أبوعنجة في وقت مبكر عبقرية الزاكى العسكرية التى تفجرت وشعت فيما بعد. يحكى أن الخليفة سأل حمدان مرة قائلاً:

– اذا لا قدر الله وجاء أجلك يا أباعنجة، فمن ستختار خلفاً لك لقيادة الجيش؟ فأجاب ابوعنجة دون أن يبدي اهتماماً لوكيله أحمد ود على:

– أحب أن يخلفنى الزاكى طمل فى قيادة جيش المهدية.

فقال له الخليفة :

– إن الزاكى أصغر من أن يضطلع بمثل هذه المسؤولية، فرد عليه أبوعنجة بقوله:

– حقيقة إنه صغير يا خليفة المهدى غير أنه شجاع جسور، خبير بالشؤون العسكرية وعندما يعد خطة ينفذها وحده بإتقان تام دون أن يشرك أحداً معه، وهو متمرس بفنون الكر والفر ولا يوجد بين أمرائك من هو أكفأ منه لملء هذا المنصب، لأنه يتمتع بكل صفات القائد، فلقد خبرته فى كل المعارك التي خضناها، ولذا فإنى استأذنك يا خليفة المهدى أن يخلفنى الزاكى طمل على قيادة الجيوش عندما يحين أجلى، وسيكون النصر إن شاء الله حليفاً له (٣).

بيد أن الخليفة عبد الله قد تجاهل هذه الوصية حينما بلغه نبأ وفاة حمدان أبى عنجة وعين قريبه أحمد على قائداً عاماً على جيش القلابات، وسرعان ما حدثت حركات تمرد، بين الجهادية ثم تبعهم على التو جنود القبائل المختلفة إذ لم يكن أحمد على محبوبا، ويؤخذ عليه تفضيله لأهله وتصرفاته المتعالية والفظة، ولم يكن فى وسعه أن يخلف أباعنجة الذى كان محبوباً لدى جنوده وموقراً بين أمرائه. فكتب أمراء الرايات ومقاديم الجهادية إلى الخليفة عبد

الله يطالبونه بتنفيذ وصية أبى عنجة الأخيرة بإسناد قيادة الجيش للزاكى طمل، فرجع الخليفة عن قراره وأرسل قاضى الإسلام أحمد على [٤]، ومعه أربعة من الذين يثق فيهم، وكلفه بحمل عزائه إلى الجيش فى وفاة قائده حمدان أبى عنجة، ويسلم الزاكى طمل أمر تعينه قائداً عاماً لكل جيوش المهدية الموجودة بتلك المنطقة وعاملاً على القلابات، وكلف أحمد على أخيراً بتضميد كبرياء أحمد على الجريح وبعثه على طاعة الزاكى.

كانت توجد على الدوام منافسة مستعرة بين أحمد على والزاكى طمل، وكان أحمد على قد انضم لحملة حمدان أبى عنجة عقب وصول الأمير إلى القلابات وكان قد خضع على مضض لسلطة حمدان الذي لم يكن فى نظره سوى العبد الذى نشأ فى دار عمه. وقد اضطر الخليفة للتدخل عدة مرات حاثاً أحمد على على طاعة قائده واحترامه. وكان هذا الشعور بالعظمة أكثر ظهوراً تجاه الزاكى طمل. لقد كانت عوامل الصيت والشهرة والسن تقف بجانب حمدان، أما الزاكى فلم يكن معروفاً حتي ذلك الوقت كما إن صغر سنه كان يضعف موقفه بالإضافة إلى أنه كان أحد العبيد الذين أعتقهم والد الخليفة عبد الله. وثارت نعرة أحمد على الاجتماعية كيف له وهو التعايشى النبيل، قريب خليفة المهدى والمحارب المحنك، أن يطيع عبداً سابقاً لم يبرهن بعد على مقدرته فى قيادة الجيش؟ ومن هنا كانت الغيرة والدسائس التى أدت لموت الزاكى طمل، إلا أن بذورها قد زرعت منذ عام ١٨٨٩م. لقد تظاهر أحمد على بالخضوع، حيث لم يكن بمقدوره مخالفة أوامر الخليفة، وتكلف الرضاء للزاكى طمل، بيد أنه بدأ فى الوقت نفسه فى الكيد له.

قوبل تعيين الزاكى طمل بترحيب حار فى أوساط الجنود، ولم يضع الزاكى زمناً، فقام بتحصين المدينة على التو، واستعد لمقاتلة الأحباش، فقد أخذت جلبة جيشهم الزاحف تصك الآذان وعلا غباره فى سماء القلابات.

رأى القاضى أحمد على بعد أن حقق شيئاً من السلام بين الزاكى طمل وأحمد ود على أن مهمته قد انجزت وفكر فى الرجوع إلى أم درمان حيث تنتظره واجبات أخرى، ولكن الزاكى أبقاه هو ورفاقه قائلاً لهم:

– لاتذهبوا قبل أن تحسم المعركة، فهى التى ستحدد وقت رحيلكم، لأنكم سترجعون وأنتم تحملون للخليفة رأساً سيكون هو رأس يوحنا أو رأسى [٥].

وكان رأس يوحنا هو الذى أخذه القاضى أحمد ظافراً إلى الخليفة، حاملاً معه نبأ انتصار

الزاكي وهزيمة الأحباش.

في صبيحة السبت ٦ رجب ١٣٠٦/ ٨ مارس ١٨٨٩م، حاصر القلابات جيش لايحصى، فقسم الزاكي جيشه لأربعة أرباع، على رأس كل ربع قائد، والأمراء براياتهم كل على رأس جماعته، وكان حملة البنادق في الصف الأول ويليهم حملة الرماح والسيوف جميعاً، وعلى الأجنحة الخيالة فى استعداد تام، كأنما الفارس وحصانه قد قدا معاً من قطعة واحدة. وهكذا خرج الجيش لملاقاة العدو الذى استقبله بوابل من الرصاص المتواصل، وتساقط الأنصار، فأمر الزاكى بفتح النار، وكان قد وضع حملة البنادق فى أقصى خط النار حتي يصيبوا أهدافهم بصورة أفضل، وحمى وطيس المعركة، كانت صفوف جيش الأحباش شديدة التقارب مما أعاق حركته، ودوت الأسلحة النارية، ولمعت الأسلحة البيضاء واشتبكت. وصمت الجلبة الآذان، والرجال يتساقطون من الجانبين، وقد مالت كفة النصر بوضوح لجانب الأحباش الذين تمكنوا بالفعل من اختراق احدى تحصينات الأنصار وأحرقوا بعض المنازل، بيد أن رصاصة طائشة قد أصابت الإمبراطور يوحنا فى مقتل، فلاذ الجيش الذى كان يظن أنه قد انتصر بالفرار وطارده فرسان الأنصار، وأمر الزاكى طمل المشاة بتعقب العدو والقضاء عليه. فلحقوا بجيش الأحباش المنهوك القوى وهو يعسكر على شاطئ نهر عطبرة، وأخذ الأنصار فى مناوشتهم طوال الليل بلا توقف، وفى الصباح أعطى الزاكى الإشارة ببدء المعركة، التي كانت قصيرة وانتهت بالنصر التام للأنصار، ثم اللحاق بالفارين وإبادتهم بلا تهاون. وفى معسكر الأحباش وجد الزاكى طمل جثة يوحنا محنطة فقطع الرأس منها، وغنم الأنصار غنائم كثيرة [٦] .

ويحكى ان الزاكى قد شاهد فى أثناء المعركة سرادقاً فخماً، محلى بالذهب والأحجار الكريمة، يقف تحته الإمبراطور، فأقسم أن يحصل عليه أو يموت دونه، وحاول ثلاث مرات الوصول إليه، فأخفق فى اثنتين، وفى الثالثة تمكن من الاستيلاء عليه رغم النيران المتوالية من جانب العدو. فإنه شق طريقه مستخدماً سيفه بمهارته المعروفة وإقدامه المعهود، حتي وصل إليه، ثم أرسله بعد ذلك هدية للخليفة. [٧]

أبرز هذا النصر على الأحباش كل مقدرات الزاكى طمل قائداً ورجل حرب، فكلفه الخليفة بتعزيز مواقع الأنصار المتقدمة على الحدود وبإرسال حملات على جبال بنى شنقول.[٨]، فأرسل عدة حملات بقيادة قادة محنكين أمثال محمد عبد الرسول [٩] وابراهيم

عبد الله.[١٠] ثم أرسله الخليفة لإخضاع الشلك[١١] الذين ثاروا علي سلطته، فترك الزاكي القلابات تحت رئاسة أحمد علي ومعه بعض القوات لتأمين حمايتها، وتحرك هو قائداً معظم الجيش الذى كان قوامه عشرين ألف مقاتل، واتجه إلى الشلك حيث تمكن بعد عام كامل من المعارك الضارية، من إخضاعهم، وقتل الزاكى زعيمهم واستولى على نحاسه الذى كان معروفاً فى كل المنطقة، وهو آلةُ موسيقية ضخمة فى شكل ثور منحوت من جزع شجرة ومغطى بالجلد، أخذه الزاكى غنيمة وجعله يضرب أمامه عندما يقود قواته للعرضة أو للقتال[١٢]، ومكث الزاكى ما يقارب ثلاث سنين فى بلاد الشلك حتى استتب بها الأمن.

وعقب ثورة الأشراف، فى عام ١٨٩٢م، بعث إليه الخليفة بزعماء التمرد ليعدمهم. كان الزاكى فى طريقه إلى أم درمان عندما رست الباخرة التى كانت تحمل المسجونين عند الجبلين وكان يوجد بينهم محمد عبد الكريم، عم المهدى، وقام الجهادية بأمر الزاكى بإعدامهم ليلاً، ودفنوا في صبيحة اليوم التالى، وفى لحظة إعدامهم هبت ريح عاتية وظلت العاصفة تدوى طوال الليل، فاعتبر الزاكى ذلك نذير شؤم له ولجيشه[١٣]، وقد أكدت الأيام ماذهب إليه فقد توفى الزاكى فى عام ١٨٩٣م وفى نهاية العام نفسه هزم الإيطاليون جيشه فى أقوردات وشتتوا شمله.

عاد الزاكى يقود جيشه المنتصر إلى أم درمان وقد ربا عدده على الثلاثين ألف مقاتل، وكان قد انضم إليه عدد كبير من الشلك وأبنائهم. وتعود الزاكى فى أم درمان على إجراء مناورات يومية لجنوده حتي يحتفظوا بمقدرتهم القتالية، وكان يعرضهم بزهو وتباه الأمر الذى أحدث غيرة ونقداً وسط الأمراء الآخرين الذين اشتكوا للخليفة، ولم يكن الخليفة نفسه راضياً عن مظاهر الزهو هذه، وقد أشار للزاكى بذلك ونصحه بالتواضع، ثم أرسله إلى القلابات.

كان يشوب تعامل الزاكي مع بقية الأمراء كثيرُ من التعالى وشيء من الازدراء. ويروي الأمير إسماعيل أحمد أحد أقارب الخليفة أن شقيقه إبراهيم الخليل أرسل مركبين لإقليم الشلك لجلب حبوب وعسل. وفى ذلك الوقت كان الزاكى يستعد للذهاب الى أم درمان وعندما رأى المركبين أمر بشحنهما بالأسلحة والذخيرة. ولكن القبطان أطلعه على أمر ابراهيم الخليل بجلب الحبوب والعسل ممهوراً بتوقيعه، فما كان من الزاكى بعد أن قرأ الأمر إلا أن مزقه تمزيقاً وقال له:

- إن الأسلحة والذخيرة ملكنا، والمراكب كذلك ملكنا، فاشحنها كما أمرتك.

وعند رجوعه إلى أم درمان ذهب إلى المسجد لأداء الصلاة، وكان يقف خلفه الأمير اسماعيل، وما أن فرغوا من الصلاة حتي تحدث معه الأمير اسماعيل فى شأن المركبين، فأدار الزاكى رأسه نحوه ببطء وقال له باحتقار ودون أن ينظر إليه :

- لقد أعطينا القبطان وكذلك الملاحين مبلغ مائة ريال.

وغادر المسجد دون كلمة اعتذار وختم الأمير اسماعيل حديثه قائلا:

- وكنا نحن فى ذلك الوقت ننتظر الحبوب التى كنا فى أشد الحاجة لها.[١٤]

وهكذا أدى تعامل الزاكى المتعالى وقسوة قلبه إلى نفور كثير من أمرائه منه، وكان معظمهم من أبناء الزعماء والقادة السابقين، الذين كان الزاكى فى نظرهم ما يزال مجرد عبد سابق. ولكنهم تحملوه لمحبة الخليفة عبد الله له ولمقدرته العسكرية التي لاتضارع. لقد كان قائداً مهيباً ولكن لم يكن محبوباً.

كان الزاكى قد شيد لنفسه منزلاً جميلاً بالقلابات مما أوغر صدر الآخرين وأثار غيرتهم عليه، وكان الناس يشيرون الى البيت قائلين:

- قصر الأمير الزاكى.

ويقال إنه قد جمع ثروة كبيرة فى حملاته ضد الأحباش والشلك. وهذا أمر محتمل بيد أنه بالنظر للقواعد الصارمة لتوزيع الجزية يكون من الصعب عليه الحصول على مثل هذه الثروة من غير وجه حق ، ومن الممكن أن يكون الزاكى قد استثمر نصيبه من الغنائم مما وفر له شيئاً من سعة العيش، التى تبدو نوعاً من الثراء فى ذلك الوسط الفقير. وسواء أكان هذا الثراء حقيقياً أم مزعوماً فإنه قد أثار حسد بقية الأمراء، وخاصة أحمد على الذى لم تتوقف اتهاماته ومكائده له فاتهمه بالخيانة وسعي إلى إحداث تمرد وسط الجيش فأثار النعرات القبلية لدي هؤلاء وأولئك دافعاً إياهم إلى الثورة على زعيمهم ذي الأصل الوضيع الذى يريد أن يلقى بهم إلى العدو حتي يحقق استقلاله. وأمام هذه الدسائس اضطر الزاكى للضرب بيد من حديد فحبس أحمد علي الذي كان يحرض القوات التابعة له على عصيان أوامره وعلى الاستيلاء على الذخائر والأسلحة التى يحتفظ بها الأخير بعناية تامة فى مخزن السلاح. وكتب الزاكى إلى الخليفة شارحا له الموقف بوضوح، بالإضافة للإجراءات التي اضطر لاتخاذها ضد النعايشة الذين تحالفوا مع أحمد على ضده[١٥].

واستجابة لطلب الخليفة أطلق الزاكى طمل سراحهم وسمح لأحمد على بالذهاب الى أم درمان. ولا أحد يدرى ما الذي دار بين الخليفة وأحمد على، على وجه الدقة بيد أن أحمد على قد رجع إلى القلابات وأظهر الطاعة للزاكى طمل الذى كان قد رجا الخليفة أن يبقى أحمد على بعيداً من القلابات حفاظاً على راحة الجميع ولكنه عندما تذكر أيامه الخوالى فى دار أسرة الخليفة طلب إرجاع أحمد على إلى القلابات [١٦].

عقب رجوع أحمد على إلى القلابات، كتب الخليفة إلى الزاكى ليرسل ابنه طه إلى أم درمان ليكون بجانب الخليفة ولكى يزوجه، فأرسله الزاكى فى الحال، وقام الخليفة بضمه لملازميه. وبعد ذلك كتب الخليفة إلي الزاكى طالباً إليه الحضور إلى أم درمان ومعه كل أمرائه، فغادر القلابات فى منتصف عام ١٨٩٣م، ووصل ألى أم درمان حيث أقام معسكره فى الخرطوم وأرسل يطلب الإذن بمقابلة الخليفة. وهذا آخر خطاب نحصل عليه وقد كتب بتاريخ السبت ٢٩ محرم ١٢/١٣١١ أغسطس ١٨٩٣م.

وفى الليل جاء إلى الزاكى، الأمير عربى دفع الله الذى كان ينتظر أمر الخليفة بالتحرك إلى الرجاف وكان معسكره على مقربة من معسكر الزاكى وقال له:

- لا تبْق هنا بل عد إلي وسط جيشك، فأنت هنا في خطر، لقد فعلت المكائد والاتهامات الباطلة فعلتها. ابتعد ودع الأيام تثبت زيفها. فرد عليه الزاكى بقوله:

أنا لا أخاف الموت، اذهب يا أخى ودعنى لقدرى [١٧].

غادر عربى أم درمان فى تلك الليلة في وقت متأخر. وفى صبيحة اليوم التالى استقبل الخليفة الزاكى استقبالاً كبيراً.

رغم حب الخليفة للزاكى وهو ما كان معروفاً للجميع، إلا أنه لم يستطع أن يغض الطرف عن اتهامات الخيانة التي وجهت إليه، فقد اتهم بالتعاون مع الإيطاليين وأنه يريد أن يخضع لهم جيشه ويقيم لنفسه إمارة مستقلة فى القلابات، بيد أن هذه الإتهامات لم تجد ما يسندها فقد أنكر الأمراء الذين استجوبوا كل الدعاوى التي نسبت إليهم وأثبتوا براءة الزاكى، وقد أقرت المحكمة براءته، ولكنها حكمت عليه بالسجن. وقد وافق الخليفة على هذا الحكم رغبة منه فى تطهير نفس الزاكى وليحمله على المزيد من التواضع، وكان يريد كذلك أن يفحص التهم الموجهة إليه ويكتشف دوافعها، ولكن تم تجاوز أوامره، فقد كانت هناك عداوة قديمة بين قاضى الإسلام أحمد على والزاكى طمل، فالأخير كان قد استولى على قطيع من الإبل كان

يملكه القاضى لصالح جيشه قائلاً:

« إن القاضى لاحاجة له بالإبل ». ونقم أحمد على عليه، وهو لم يكن قاضى الإسلام فحسب ولكنه كان كذلك قائداً لإحدى رايات الراية الزرقاء، فاعتبر هذا الإستيلاء سرقة لإبله وأقسم على الانتقام، وقد واتته الفرصة عندما سجن الزاكى في بيت خاص وأمر حارسه بتضييق الخناق عليه وبأن يمنع منه الأكل والشرب، ونفذ الحارس هذا الأمر معتقداً أنه قد صدر من الخليفة عبد الله، رغم أن الخليفة كان يرسل كل يوم طعاماً من مائدته الخاصة إلى الزاكى(١٨).

وبعد معاناة أربعة عشر يوماً، أسلم الزاكى الروح لبارئها فى يوم ٢١ سبتمبر ١٩٩٣م/ ١٠ ربيع الأول ١٣١١هـ. ومثله مثل حمدان، لم يكتب لهذا المحارب أن يموت على ساحة المعركة بعد أن قضى حياته كلها مقاتلاً في سبيل الله، لقد مات ضحية للظلم وكان موته بقعة ساهمت فى تشويه تاريخ الخليفة عبد الله. وبعد ذلك بقليل طلب الخليفة أن يحضر له الزاكى طمل، وعلم عندئذ بموته فاستشاط غضباً وأمر بأن يوضع القاضى فى السجن بدلاً منه وأن يترك الحكم لله: فإن عاش فهذا يعني أن الزاكى قد كان مذنباً وإن مات فهذا دليل على براءة الزاكى. ومات أحمد على، ونفذ فيه حكم الله.

لقد حزن الخليفة عبد الله على الزاكى طمل وربما تذكر عند لحظة الهزيمة الكلمات التي قالها الزاكى ليعقوب عندما ساقوه الى السجن:

– سيأتى يوم تحتاجون فيه لأمثالى من الرجال ولن تجدوهم.(١٩)

(١) سليمان محمد سليمان ، **الزاكي طمل**، الخرطوم، ١٩٥٢م ص ١٤ - ١٥.

(٢) من قبيلة المنضلة وهي قبيلة خلاسية، معظم أفرادها من الرقيق السابقين، وكان التعايشة يحتضنون أفراد هذه القبيلة وسطهم ويتزاوجون معهم.

(٣) سليمان محمد سليمان، ذ.س. ص ٦.

(٤) انضم أحمد علي للمهدى منذ عام ١٨٨٢م، وقد عينه المهدى فى منصب قاضى الإسلام عقب تحرير الأبيض، وهي وظيفة أحدثها المهدى في بداية دعوته وظل يمارس عمله حتي غضب عليه الخليفة وسجنه عام ١٨٩٣م ومات فى السجن عام ١٨٩٤م وهو التاريخ الذى ذكره هولت (د. س. ص ٢١٠) أما اذا اعتدنا على الرواية الشفاهية لأسرة الخليفة فإن موته كان بعد أربعين يوماً من وفاة الزاكي طمل، اى يوم ٣٠ اكتوبر ١٨٩٣م.

(٥) سليمان محمد سليمان، ذ، س . ، ص ١٦.

(٦) اسماعيل عبد القادر الكردفانى ، **الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش**، طبعة منقحة: محمد ابراهيم ابوسليم ومحمد سعيد القدال بعنوان: **الحرب السودانية الحبشية** ١٨٨٦ - ١٨٨٩م، الخرطوم ١٩٧٢، ص ٩٠ - ٩٩.

(٧) المصدر السابق ، ص ٩٩.

(٨) بنو شنقول : تطلق هذه الكلمة على حجر مقدس بيضاوى الشكل يعتقد البرتا أنه يحوي أرواح أسلافهم والمصدر شنقولى، ويطلق الاسم على المنطقة التي يسكنها البرتا فى جنوب الأنقسنا غرب النيل الأزرق.

(٩) عبد الرسول عمر، أمير وقائد أحد أرباع جيش الشرق: عمل تحت قيادة أبى عنجة ومن بعده الزاكى طمل وقد أرسله الزاكى عقب انتصاره على الأحباش لإخضاع بنى شنقول وسكان جبال الأنقسنا.

(١٠) عبد الله إبراهيم، أنظر أبوعنجة، الهامش (١٣).

(١١) الشلك يسكنون غرب النيل الأبيض، وقد انضموا للمهدية بشىء من الإخلاص وخلال مجاعة عام ١٨٨٩م رفض الشلك دفع زكاة الحبوب بل أرسلوا منحة من مائتى إردب. عقب الانتصار فى القلابات أرسل الخليفة الزاكى طمل لتأديبهم. وظل يقاتلهم لما يقارب العامين حتى تمكن من إخضاعهم تماماً، وفى عام ١٨٩٣م كانوا قد خضعوا نسبياً، تحت قيادة ملكهم عبد الفضيل الذى خلف الملك عمر الذى كان قد قتله الزاكى، لقد كانت مقاومة الشلك ضارية.

(١٢) شقير، ذ. س . ، ص

(١٣) جهاد ، ص ١٧٧ .

(١٤) سليمان محمد سليمان ، ذ. س . ، ص ٤٦ و ٤٧.

(١٥) خطاب الزاكى طمل إلى الخليفة بتاريخ ١٦ رمضان ١٣١٠هـ / ٣ ابريل ١٨٩٣م ، مهدية ١/٤ .

(١٦) المصدر السابق، ٩ ذو القعدة ١٣١٠/ ٢٦ مايو ١٨٩٣م.

(١٧) سليمان محمد سليمان ، ذ. س . ، ص ٥٦ .

(١٨) روى هذه المعلومات مهدى الطيب الأمير يعقوب.

(١٩) زلفو ، كررى ، ص ٢٤٩. ذكرت عدة روايات لموت الزاكي طمل: وفى خطاب لمحمود أحمد رداً على خطاب الخليفة عبد الله، يرى من خلال وصفه لجثة الزاكى طمل أن ذلك دليل علي غضب الله عليه، «.... وأنه بمجرد خروج روحه، اشتعلت النار فى جسده واسود وجهه....» خطاب بتاريخ ٢٢ ربيع الآخر ١٣١١هـ / ٢ نوفمبر ١٨٩٣م. مهدية ١١/١٤ . تقرير المخابرات المصرية، رقم ١٩، أكتوبر ١٨٩٣، حول سجن ووفاة الزاكى طمل.

محمد ود بشارة

« لا ، لا يمكن ان يستمر هذا الحال» !.

كانت تلك هى كلمات الأمير محمود ودبشارة التى قالها وهو يقطع الأرض جيئةً وذهاباً، فبسبب إهمال القائد وتراخيه هزم على أيدى المصريين بين فركة وعكاشة. لم يكن الأمير حمودة [1] قادراً علي الدفاع ومقاومة الأعداء إذ إن كل ما استطاع فعله هو أن يتراجع برجاله إلى فركة، وهناك وقع مرة أخرى أسير إهماله وتراخيه، رغم النصائح واللوم الذى ما فتىء ود بشارة يوجهه إليه.

كان هذا الحال غير محتمل وغير مقبول بالنسبة لهذا الأمير الشاب القوى، التعايشى الذى كان عاملاً على دنقلا وله اليد الطولى على كل قوات الشمال، إذ كان لابد له من تقويم اعوجاج الموقف واصلاح خطله مهما كلف الأمر حيث إن الأمر لم يضع بعد. حاول محمد بشتى السبل أن ينبه حمودة ولكن دون جدوى، إذ فقد الأمل فى أن ينفخ فى روحه شيئاً من القوة وبالرغم من ذلك كان لابد من القتال واسترداد عكاشة أو على الأقل منع العدو من التقدم.

استدعى ود بشارة الأمير عثمان أزرق الذى عرف بالشجاعة والمهارة، وطلب منه أن يحل محل القائد العاجز حمودة الذى رضخ للأمر مبدياً عدم رضاه وتذمره، وحسم الجدل فى معركة فركة إذ قتل الأمير حمودة بعد أن استبسل فيها الشىء الذى غفر له سابق إهماله.

بعد سقوط فركة قدر ود بشارة أن دنقلا قد أصبحت مهددة بالخطر، فقام بتجميع كل قواته فيها وتجهيز دفاعه، وانقضى فصل الصيف ثم وصلته بعض الإمدادات من أم درمان، وهاجم الأعداء إحدى مواقعه بكرمة لكنه حصنها وأحكم قبضته عليها. كانت مدافع العدو تهدد النهر، والجيش يتقدم برا، ورأى الأمير أنه من الأفضل إخلاء كرمة والتراجع قليلاً نحو الجنوب على الضفة الأخرى، فزحف بقواته مستتراً بالليل، ومن ثم بدأ القتال إذ انهال الرصاص بينما كانت قوات المهدية تدافع ببسالة وتتراجع بنظام جيد.

كان ود بشارة يحارب متقدماً فرسانه، وكانت الرماح تبرق والسيوف تلمع تحت أضواء الشمس، وتدوى صيحات الأنصار بالتكبير وهم يستقبلون الموت، دوياً تهتز له الأرض.

وتحفز الجيشان، كل منهما على إحدى ضفتى النيل، وأصيب ود بشارة إصابة بالغة، ورغم أنه كان مثخناً بالجراح فقد عزم على الاستمرار فى القتال لولا أن الضرورة حملته على التراجع إلى دنقلا حيث الذخائر والمؤن .

وعندما هوجمت دنقلا، أراد ودبشارة أن يحميها حتى الموت، لكن رفاقه قاموا بنسج حيلة شوهت صورته لبعض الوقت. ففى اليوم السابق للمعركة قام بجمع وكلائه ليوجه إليهم نصيحته الأخيرة وتحدث أحد الأمراء نيابة عن إخوانه قائلاً:

– لو أن رجلاً أراد أن يمارس تجارة وهو يعلم أنها لاشك خاسرة، ألا يتركها؟

فرد ود بشارة قائلاً:

– بلى بلا شك. فواصل الأمير حديثه:

فما بالك بالأمير عندما يتعلق بتجارة تمس الأرواح، فأنت تعلم أن جيشنا يتكون كله من الخيالة والمشاة ولدينا حوالى ستة آلاف رجل بينما الجيش المصرى يزيد على الخمسة عشر ألف، ونحن لانملك سوى ألف وثمانمائة بندقية من نوع قديم، والأعداء يملكون العشرات منها، كما يملكون جيشاً قوياً وبواخر على النهر، ألا ترى أن محاربتهم ستكون تجارة خاسرة؟ إنه لابد من هجر دنقلا. صحيح إن نحن صمدنا فسنكبدهم خسائر فادحة، لكن هل نستطيع أن نصمد حتى النهاية، حتى نهزمهم ونردهم إلى مصر؟ نحن نرى أن نأخذ عوائلنا وننسحب إلى الدبة، وهناك نطلب المدد من أم درمان. وقف ودبشارة منتصباً وصاح فيهم:

– الموت عندى أفضل من عار التقهقر، أرى أن نصمد ونحاربهم حتى نموت ميتة الشرفاء.

وسكت غاضباً، وهنا صمت مؤيدو فكرة الانسحاب لكى لايثيروا سخطه أكثر من ذلك وأظهروا له اقتناعهم بوجهة نظره ثم تشاوروا بالإجماع على خطة ما.

وفى صباح اليوم التالى، خرج ودبشارة وامتطى جواده للذهاب إلى ميدان المعركة، فقفز خلفه أحد المتآمرين وشل حركته سريعاً وأسرع الآخرون إلى الأمير يحزمونه على سرج حصانه وأخذوا بلجام فرسه ثم أسرعوا به إلى خارج المدينة وتبعه بقية الجيش، وأخذ ودبشارة يزبد ويتلوى فى وثاقه، وخوفاً من أن يجمع جنوده حوله ويحرضهم على الحرب كمموه بعمامة وعندما سقط حصانه، أحضروا حصاناً آخر ووضعوه عليه ولكنه سرعان ما وقع كذلك بعد عدة ساعات من الجرى المحموم.

وبعد ثلاثة أيام من السير المتواصل وصلوا إلى مدينة الدبة حيث فكوا وثاق زعيمهم، الذى

صمت غاضباً، وأخذ أصحابه يتمتمون الأعذار فالظروف هي التي اضطرتهم إلى التصرف بتلك الطريقة وهم الآن نادمون على ما فعلوه ولكن الأمير ظل صامتاً[٢] .

وفى أم درمان كان الإنفعال عظيماً حينما علم الناس بسقوط دنقلا فى أيدى الغزاة من الإنجليز والمصريين وأن ود بشارة قد هرب دون أن يقاوم، وكانت النساء يهجونه فى أغانيهن ويصفنه بكلمات لاذعة، أما الخليفة فقد أخذته الدهشة لما حدث إذ إنه يعرف ود بشارة جيداً وهذا الهرب من جانبه لاتفسير له، لذا فقد استدعاه وطلب منه الإيضاح، لم يرد الأمير أن يفضح أصحابه لكن هذا التوبيخ والوصف اللاذع بالجبن والهروب أمام الأعداء الذى يوجه إليه في حضوره لم يكن محتملاً، وطلب من الخليفة بانفعال أن يسمح له بالحديث:

– إن عبدك الذى يحكمه عدلك، والذى تربى تحت ظل سيفك يستحى أن يشغل فكر سيده بشكوى ضد إخوانه. لقد خالفوا نصيحتى وظننت أنى تمكنت من إقناعهم بأن الموت أمام الأعداء خير من عار التراجع لكنهم لجأوا إلى الحيلة وجلبوا لى العار، عسى الله أن يأذن لى بالقتال مرة أخرى فأثبت للذين يوجهون إلى الإساءة إن ابن التعايشى بشارة ليس بجبان.

وقام الخليفة بتهدئة ود بشارة، فقد كان في تلك اللحظة يحتاج لكل رجاله وقتالهم، إنما هو قتال فى سبيل الله، وإنما يأتي النصر على أسنة الرماح والسيوف، فإما النصر على الأعداء وإما الفوز بالشهادة الذى يقربنا إلى الله. فقال الخليفة:

– هذه هى إرادة الله ولا أحد يستطيع الفرار منها، فالحرب حظوظ ، اليوم لنا وغداً علينا، غداً سأتحدث إلى كل إخوتنا، ارفع رأسك أيها المقاتل فى سبيل الله، فما زال لديك الكثير لتفعله فى سبيل ربك – الله أكبر – الله أكبر – سوف ينصرنا الله وستنتصر دعوته ودعوة مهديه.

وفى صبيحة يوم الجمعة، عقب صلاة الفجر خاطب الخليفة الأنصار أمام ساحة المسجد التي اكتظت بجمع لايحصى من الناس، انتظم كل منهم تحت راية الأمير، ووقف الخليفة يخاطبهم بصوت قوى جهور مدو:

«أجل إن قوادنا تراجعوا من دنقلا ولكنهم لم ينهزموا. لقد كان ذلك ابتلاء من الله وامتحاناً لإيمانهم ولم يهلك سوى الذين عصونى، وكنت قد أمرت رجالى المؤمنين بأن يكفوا عن القتال وأن يرجعوا للمتمة وينصاعوا لأمرى، لقد أنبأنى ملك من الله وروح سيدنا المهدى فى رؤيا بأن أجساد الكلاب الكفرة الإنجليز والمصريين سترقد ثانية بين دنقلا وأم درمان في نفس الأماكن التى تعفنت فيها عظامهم، فالكفرة لا محال منهزمون والنصر حليف الدين.

استل الخليفة سيفه وأخذ يهزه فوق رأسه وصاح بصوت قوى:
- النصر للدين، النصر للإسلام، وعندما سمع الناس صوته ورأوا سيفه يلمع فى الشمس قاموا جميعهم باستلال سيوفهم بقوة وتحد، وهم يزمجرون النصر للدين، النصر للإسلام، الله أكبر.

كان محمد ود بشارة أحد أقارب الخليفة، وكان ما يزال طفلاً صغيراً حينما صحب أباه الذى لحق بالمهدى فى الأبيض. ومنذ تلك اللحظة أخذ يحارب في كل المعارك التي قادها المهدى بنفسه. ثم أرسله الخليفة بعد ذلك إلي كردفان ليكون فى خدمة عثمان آدم، وعند موت عثمان آدم لم يستطع أن يخلفه لصغر سنه فبقي بعض الوقت مع الأمير محمود ثم استدعاه الخليفة إلى أم درمان وجعله ضمن ملازميه ، ثم أرسله إلى الشمال ليكون عاملاً على دنقلا. وبعد الأحداث التى ذكرناها وبعد أن عرف الخليفة مهارته العسكرية أوكل إليه مهمة تنظيم الجيش فى دنقلا والزحف إلى المتمة، وعندما سقطت المدينة وكما حدث فى كرمة من قبل تمكن بصعوبة بالغة من إحداث ثغرة سحب بها ما تبقى من جيشه. ولقي حتفه بكررى حيث مات شجاعاً كما عاش شجاعاً. وقد وفر عليه موته تجرع الهزيمة .

ألا رحمه الله هو ورفاقه الذين استشهدوا فى سبيل الله على أرض كررى.

(١) حمودة إدريس البقارى، من أمراء البقارة، وكان يقود أحد أرباع جيش الشمال، وشارك فى كل المعارك التى جرت فى هذا الإقليم ثم قتل وهو يحارب في فركة عام ١٨٨٦م.

(٢) زلفو ، كررى، ص ٢١٦ والصفحات التالية، شقير ، ذكر سابقاً ص – ١٢١٧ والصفحات التالية.

نشرت صحيفة التايمز بتاريخ ٤ سبتمبر ١٨٩٦ قصة حياة محمد ود بشارة فى مقال بلا توقيع تحت عنوان : (THE CAMPAIGN IN THE SUDAN) «حملة السودان» من مراسلنا الخاص ، كوش ١٦ أغسطس.

عثمان أزرق

خيم الظلام على سهل كرري، إلا من الأضواء الخافتة التى كانت ترى على ذلك السهل المترامى الأطراف حيث ترقد آلاف الجثث .وكانت تظهر هنا وهناك بعض الأشباح التى جاءت تبحث عن موتاها، ونستطيع أن نتبين بين هؤلاء الباحثين امرأة تتوسط أربعة من العبيد وهى تنحنى على جثث المحاربين الأنصار التى تكسوها سكينة الموت. كانت تلك المرأة هى زوجة عثمان أزرق وقد جاءت لتبحث عن جثة زوجها كي تقوم بدفنها، وفجأة وقف أمامها يوسف ميخائيل، أحد كتاب الراية الزرقاء، وقد جاء يبحث عن موتاه كذلك كان يوسف هذا قد صادف جثة الأمير عثمان أزرق، فقاد أرملته إلى حيث ترقد الجثة وساعدها في دفنها ثم انصرف هو بعد ذلك ليستأنف بحثه [1].

ينحدر الأمير عثمان أزرق من قبيلة الدناقلة واسمه عثمان محمد عيسى، وكان الرجل قد انضم للمهدى منذ بداية دعوته ثم انتقل إلي خدمة الخليفة عبد الله بعد وفاة المهدى وأخلص في مساندته. وكان عثمان أزرق قد قضى معظم السنوات السابقة لعام ١٨٩٦ في حدود السودان الشمالية حيث كان اسمه يرعب المصريين لما كبدهم من خسائر بفعل غاراته المتواصلة عليهم. وقد كانوا يتمنون موته هو بالذات من بين كل الأمراء تخوفاً من مهارته العسكرية وجرأته التي خبروها.

ولد عثمان أزرق في الأبيض حيث استقر والده منذ زمن بعيد. وكان قد التحق بخدمة الحكومة منذ صباه حيث تولى مسؤولية البريد بين الخرطوم ودارفور. وقد تمكن عثمان أزرق من فرض احترامه على أمراء الغرب الممتلئين غروراً بسبب قرابتهم من الخليفة عبد الله. وذلك على الرغم من أن مهارته العسكرية كانت تثير غيرة الآخرين منه وغضبهم عليه.

فى ذات يوم من الأيام ، وعند توقفه عند إحدي نقاط البريد لتغيير دابته، سمع حديثاً عن رجل فى الجزيرة يزعم أنه المهدى المنتظر، قد تمكن هو وأصحابه، على ضعف تسليحهم، من هزيمة قوة نظامية أرسلتها الحكومة عليهم، كما علم أن ذلك الشيخ قد غادر هو وأصحابه الجزيرة أبا إلى النوبة، فما كان من عثمان أزرق إلا أن أدار ظهره للخرطوم، وامتطى بعيراً قوياً وانطلق إلى كردفان حيث انضم الى المهدى فى قدير وبايعه هناك [2] . ومنذ تلك اللحظة

سخر عثمان أزرق كل مهاراته ومقدراته العسكرية الفائقة للمهدى وللخليفة من بعده. وتميز عثمان بخصائص قتالية نادرة وكان يتمتع بمقدرة فائقة في توجيه الضربات القاضية للعدو.

وفى توشكي قام عثمان أزرق بتجميع ما تفرق من وحدات جيش الأنصار وقادها للمواقع الخلفية لجيش المهدية جنوب وادى حلفا - وفى فركة تسلم قيادة قوات المهدية وجمع الهاربين بعد أن هدأ من روعهم ثم انسحب إلى الضفة الغربية للنيل ومعه النساء والأطفال إلى أن تأكد من سلامتهم وتوفير الحماية لهم ثم رجع بعد ذلك إلي الضفة الشرقية منتظراً وصول العدو.

دارت معركة دنقلا فقاتل فيها بشجاعة منقطعة النظير، وعندما جرح قام بربط نفسه علي فرسه وواصل القتال. وفى كرري التى كانت مسك الختام، أخذ عثمان أزرق سيفه وقاد رجاله فقاتلوا بسيوفهم حتي تراكمت جثثهم بعضها فوق البعض، وبينما كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة لم تلن عزيمتهم بل كانوا يشعرون بقوة مكنتهم من طعن بطون الخيل، أثناء مرور جيش العدو فوقهم، والقضاء علي فرسانها.

هجم عثمان أزرق، وهو منتصب القامة فوق ظهر فرسه، على مدافع العدو التي كانت تدوى فى كل الاتجاهات ، فمزقت جسده عدة طلقات سقط على إثرها شهيداً مخلصاً للمهدية حتى نهاية حياته. فكان طوال حياته محارباً جسوراً ومقاتلاً شرساً من أجل رفع راية الإسلام ومن أجل استمرار الجهاد ضد الكفار، فقد وعدهم الله علي لسان مهديه بأن الأجانب سيدحرون على أرض المعركة بالسودان فماذا يهمه إن مات بعد ذلك ما دام الخليفة حياً ليوفى بهذا العهد.

وهكذا حلت سكينة الموت على شهداء كررى، فلقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وعلى الأحياء إكمال ما تبقى، وإن كانت مشيئة الله ألا ينتصروا اليوم فسوف يأتى يوم يتحرر فيه السودان علي أيدى أبنائهم، فمعركة كررى لم تكن عبثاً ومن جذورها نبتت راية الحرية فى المستقبل، وستحطم البلاد أغلالها وتحتل مكانتها بين الأمم الحرة.

وثائق بعد

(١) يوسف ميخائيل، ذكر سابقا، ص١٣٦.

(٢) زلفو ، ذكر سابقاً، ص ٢٦٧ – ٢٧٠.

عمر صالح

غادر الأمير عمر صالح أم درمان وبرفقته عدد من الأمراء فى يوم ١١ يونيو ١٨٨٨ متجهاً إلى الجنوب وكان يقود أسطولاً يتكون من ثلاث بواخر وستة صنادل ويتكون جيشه من ألف وخمسمائة رجلاً، ثلثاهم من العرب والثلث الأخير من الجهادية.

كانت الرحلة طويلة وشاقة، فقد اضطروا منذ وصولهم إلي فشودة إلي استخدام الفؤوس لشق طريقهم وسط السدود، وأصبح النهر امتداداً لا نهاية له من الأعشاب التى أخذت تحيط بهم وتخنق أنفاسهم كأنها الثعابين، أما الضفتان فكانتا غطاءاً كثيفاً من النباتات التى كانت تعج بالحشرات والزواحف.

وبينما هم يتقدمون تكالبت عليهم الأمراض وسقط الأمير عبد الله الطريفى طريح الفراش، فقد أصابته حمي أفقدته الوعي لعدة أيام حتى توفى فى اليوم الخامس لمرضه، فكان وقع موته ثقيلاً على الحملة بحسبانه أول حادث وفاة بالإضافة إلى أنه كان أحد قادة الرايات ورفيقاً لعمر صالح فى السلاح منذ زمن طويل [١].

كانت السفن فى ذلك الوقت راسية. وأخذ عمر ينظر حوله بقلق عله يجد مكاناً يحفر فيه قبراً إلا أن الضفتين كانتا تمتدان أمامه فى منظر موحش تغطيهما الحشائش على مدى البصر، ومر الوقت ثقيلاً وأخذت السماء تظلم، وفجأة رأى عمر تلاً غير بعيد من الشاطئ فنزلوا جميعهم وصعدوا فوق ذلك التل وحفروا قبراً دفنوا فيه أخاهم بعد أن صلوا عليه وودعه عمر صالح للمرة الأخيرة ثم أقلعوا [٢].

واستمرت الرحلة المضنية حتي وصلوا إلى لادو فى أول اكتوبر إلا أنهم وجدوها خاوية على عروشها، فبقى بها عمر صالح لعدة أيام لكى يأخذ جيشه قسطاً من الراحة. وقد كاد الإبحار يكون مستحيلاً بسبب الفيضان، ومع ذلك فقد كان مضطراً للتقدم لأن طلائعه قد أكدت له أن جيش أمين باشا [٣] موجود فى الرجاف ودقلى، بيد أن الأقوال كانت متضاربة، فعلى حين ادعى البعض أن قوات أمين باشا قد ثارت عليه، زعم البعض الآخر أنها كانت تستعد للزحف على الأنصار.

كان عمر صالح قد أرسل خطابات الى أمين باشا والى حاميات الرجاف ودقلى يدعوهم

للاستسلام[٤] ولم يكن ردهم عليه سوى أن قتلوا رسله، فقرر عمر صالح أن يزحف على الرجاف، ووصلها يوم ١٧ أكتوبر ١٨٨٨م.

حاصر عمر المدينة ثم انتزعها بعد معركة عنيفة في يوم ١٩ أكتوبر ١٨٨٨م وسجن جنود الحامية أو من بقي منهم، على الأحرى، وقد حصل الأنصار على غنائم كثيرة من العبيد والعاج والسلاح والذخائر.

فقد عمر ثلاثة وستين من رجاله في معركة الرجاف حيث قتل بعضهم ومات البعض الآخر غرقاً أو مرضاً، ثم أقام عمر معسكره في الرجاف وعمل على إعادة تحصين المدينة وقرر بعد ذلك أن يرفع راية المهدية على الأراضي الواقعة شرقي بحر العرب وغربيه، فبدأ بعقد اتفاقات مع مختلف زعماء القبائل شبه السود وقد كان هؤلاء معجبين بشجاعة الأنصار ومقدراتهم القتالية، فسارع أكثرهم الى مبايعة عمر صالح وموالاته إلا أن القليل منهم كان قد آمن بالمهدية حقاً.

طلب عمر صالح من رجاله أن يلتزموا الأمانة الشديدة في كل معاملاتهم مع سكان الإستوائية وألا يأخذوا شيئاً بالقوة بل عليهم أن يشتروا كل ما يحتاجون إليه، فنفذ الأنصار أوامره بدقة مما بهر السكان وجعلهم عونا لعمر صالح[٥] لأنهم لم يتعودوا على مثل هذه الأمانة من التجار الدناقلة والموظفين الأتراك.

علم عمر صالح من طلائعه أن فرقة من دقلي تعد العدة للزحف نحو الرجاف فأعد لهم كميناً على ضفتي النهر وقضى عليهم عن بكرة أبيهم[٦] ورجع الأنصار منتصرين إلى معسكرهم، ثم قرر عمر أن يزحف إلى دقلي بعد ذلك، ووصلها في يوم ٢٥ نوفمبر.

حاصر الأنصار دقلي وبدأوا الهجوم عقب صلاة فجر يوم ٢٨نوفمبر وقد قاد الهجوم على القلعة تسعة أمراء على رؤوس راياتهم وهم على منير ونصرة الداراري وأحمد أبو النخيلة وآدم جاد الرب والجزولي رحمة والجزولي مقبول وموسى تاي الله ومحمد النور موسى الأحمر وإدريس الشريف، وحاولوا اقتحام القلعة إلا أن الباب قد صمد في وجههم وقد صب عليهم المحاصرون بالداخل وابلاً من نيران بنادقهم ومدافعهم، وأخذ الأنصار يهوون بفؤوسهم على الباب بينما نيران العدو تحصدهم بيد أنهم لم يتراجعوا بل أخذوا يتنافسون على نيل الشهادة وكل منهم يقول لصاحبه:

« اسبقني يا أخي على الكفار فإني ميت ».

فيرد عليه الآخر بقوله:

« وأنا كذلك ميت » إلا أنه لا أحد منهم قد فكر فى التراجع فلا أحد يريد أن يقابل ربه وعار التقهقر على جبينه، فبقوا جميعاً صامدين خلف أمرائهم حتى قضى عليهم، وقد أبيدت ثمان رايات أما الراية التاسعة بقيادة آدم جار الرب فقد تمكنت من كسر الباب، ودخل الجنود كالأسود الضارية يقتلون كل من وجدوه فى طريقهم، وقد كان عددهم قليلاً وبمجرد أن زالت المفاجأة عن الأعداء تكاثروا على الأنصار الذين قاتلوا وقتلوا حتى لم يبق منهم سوى عدد قليل من النجاة (٧).

واستمر الحصار وحاول المحاصرون الخروج إلا أن الأنصار هاجموهم وأجبروهم على الرجوع إلى حصونهم بعد نصف ساعة من القتال، وواصل عمر الحصار رغم قلة ذخائره، ولم ييأس من الإستيلاء على دقلى فقد كان واثقاً من أن الله لا يخذل جنده وأن النصر آت من عنده.

وجاءت طلائع عمر صالح لتخبره بأن قوات الحكومة التى هربت من الرجاف قد تجمعت مرة أخرى وتريد أن تزحف على المدينة حيث ترك عمر صالح بها النساء والأطفال والمرضى تحت حماية قليلة العدد، وما كان يستطيع أن يخاطر بمن تركهم خلفه، فرفع الحصار عن دقلى ونفسه تكاد تموت حسرة على ذلك ورجع الى الرجاف مسرعاً وبقى هناك منتظراً الإمدادات التى وعد الخليفة بإرسالها.

كان عمر صالح من قبيلة الجعليين وقد نشأ وترعرع فى شكا بغرب السودان، وتبع المهدى منذ بداية دعوته بصدق وإخلاص، كان متأسفاً على أن جهوده لحمل القبائل شبه السود السائدة له على الإيمان بالمهدية لم تؤت أكلها، وقد أطلع الخليفة عبد الله على خيبة أمله وطلب منه أن يرسل إليه رجالاً مشبعين بالعقيدة حتى يتمكنوا من إقناع هذه القبائل بمنطقهم وبعلمهم.

أخذ ضحايا الأمراض يتزايدون وسبب طقس الرجاف أنواعاً من الحمى والتزيف للجنود، كما كان عليهم عند كل حملة أن يشقوا طريقهم وسط الأعشاب الحادة كالسكاكين مما كان يسبب لهم جروحاً تتقرح وتلتهب ثم تودى بالحياة . وظلت الأمطار تهطل غزيرة بلا توقف وعاقت تقدمهم مما أضعف الأنصار وأنهك قواهم إلا أنهم ظلوا صامدين وروحهم المعنوية عالية.

وبالرغم من جهود عمر صالح التى بذلها لتعويض خسائره، فإنه لم يتمكن من تجنيد عدد كاف، لا من رجال القبائل ولا من جنود الحكومة السابقين ، فكتب إلى الخليفة يصف حالته

وحالة جيشه وطلب منه بالحاح أن يرسل إليه رجالاً من التعايشة لمقدرتهم المتفردة على تحمل الطقس فقد مات عدد كبير من رجال رايات الكبابيش ورفاعة الذين أرسلهم الخليفة تحت قيادة أمرائهم [٨] واضطر عمر صالح للبقاء في الرجاف نسبة لنقص الرجال والذخائر.

وفى هذه الأثناء عرض فضل المولى [٩] ، أحد ضباط أمين باشا المتمردين على عمر صالح أن يتحالف معه وطلب من عمر أن يحضر إليه فى ودلاى التى كان فضل المولى متحصناً بها، وزعم أنه يريد أن يسلم المدينة لعمر صالح وأن ينضم بجنوده وذخائره للأنصار.

جمع عمر صالح رجاله ووصل الى ودلاى فى مارس ١٨٩١، بيد أنه لم يكد يصل إلى أسوار المدينة حتى انهال عليه وابل من الرصاص ونيران المدافع، فاستشاط عمر غضباً وأمر رجاله بالهجوم محاولاً اقتحام المدينة، إلا أنه اضطر للتراجع، وفقد في هذه المعركة ما يقارب السبعمائة من رجاله [١٠].

وكتب عمر صالح عند رجوعه إلى الرجاف خطاباً شديد اللهجة إلى فضل المولى يحتج فيه على الخديعة والخيانة اللتين وقع عمر ورجاله ضحية لهما. ومنذ ذلك الحين توقفت كل محاولات الصلح وأصبح السيف هو الحكم بينهما [١١]، وعندما حاول فضل المولى ومن معه من رجال بذخائرهم أن يلحقوا بسالم بك فى كفلى، عمل عمرصالح على مهاجمته إلا أنه لم ينجح وقد أضعف الطقس جيشه وأوهن قواه. طلب عمر من الخليفة عبد الله مرة أخرى أن يرسل إليه بمدد حيث لم يبق معه سوى ألف وثلاثمائة من الرجال. وقد كان غالبيتهم مرضى، كما كان عليه أن يواجه القبائل شبه السود القاطنة على جانبى النهر، فقد أخذت هذه القبائل تهاجم الأنصار وتداوم على مناوشتهم عندما رأت ضعفهم، إلا قبيلة المكاركة فهى الوحيدة من بين تلك القبائل التى ظلت على إخلاصها لعمر صالح، فقد اعتنق زعيمها الدعوة المهدية وكان يمد الأنصار بالحبوب ويحارب هو ورجاله بجانبهم، وعلاوة على ذلك فقد غادر أراضيه وتبع عمر صالح الى الرجاف، إلا أن رجاله قد هجروه تدريجياً إذ لم يبق سواه وأولاده على إخلاصهم حتى قتلوا فى معركة الأنصار والبلجيكيين.

دفع تكرار تمرد القبائل شبه السود ببعض الجهادية للتمرد والهروب بأسلحتهم وذخائرهم للانضمام لتلك القبائل، فاضطر عمر للجوء إلى القسوة. وإذ لم يكن فى إمكانه أن يحافظ على الرجاف بالعدد القليل الذي تبقى له من الرجال فقد اضطر للانسحاب إلى بور شمال الرجاف وأقام معسكره هناك، بيد أن الخليفة لم يقبل هذا الإنسحاب وأمر عمر بالرجوع إلى الرجاف وأرسل إليه تعزيزات من الرجال والذخائر، فرجع عمر صالح إلى الرجاف يوم ٢ ابريل

١٨٩٣م. ثم قرر الخليفة أن يجعل من الرجاف منفى لكل من لايرغب فيه من الذين يقفون في وجه سلطته، وفي عام ١٨٩٣م ، أرسل محمد عثمان أبا قرجة (١٢) أميراً على الإستوائية التي كان عمر صالح أميراً عليها حتى ذلك الوقت إلا أن الأخير خضع لأمر الخليفة وعمل مع علي مختار بكر (١٣) التعايشي وكيلين لأبي قرجة.

كان أبو قرجة من أوائل الدناقلة الذين تبعوا المهدي، وقد كان ذا شأن كبير بين أهله الدناقلة الذين كانوا لايكفون عن التآمر على التعايشة في الرجاف، مما اضطر عمر صالح لأن يكون في حالة حذر دائم لإفشال مؤامراتهم، ولكن أباقرجة لم يقف بجانبهم بل أحبط مكائدهم وقضى على تمردهم.

قام عمر صالح ببعض الحملات في جنوب الإقليم وتمكن من القبض علي أحد السحرة وقام بشنقه، وفي هذه الأثناء دخل البلجيكيون من الكونغو واحتلوا ديار المكاركة واصطدموا هنالك بالأنصار، فعقد أبوقرجة مجلساً عسكرياً وقرر أن يزحف على البلجيكيين ويطردهم من إقليم أعالي النيل.

أقلقت هذه الأخبار الخليفة عند وصولها إلى أم درمان لأن عدد الأنصار وقوتهم لم تكن كافية لمواجهة البلجيكيين، كما إنه لم يكن يثق في أبي قرجة فقرر أن يعين عربي دفع الله بدلاً عنه.

تحرك عربي دفع الله يوم ٢١ أغسطس ١٨٩٣ ومعه باخرتان وثلاثمائة من الرجال حتى وصلوا إلى فشودة حيث التقوا بالأنصار الذين كانوا يقاتلون الشلك فقضوا معهم بعض الوقت ثم واصلوا رحلتهم. ووصل عربي إلى الرجاف يوم ١٢ أكتوبر ١٨٩٣م حيث تولى القيادة في الحال وعاونه عمر صالح بإخلاص، وقاد عربي عدة حملات على البلجيكيين انتصر في بعضها واضطر للتراجع في البعض الآخر.

وفي يوليو ١٨٩٥ جاء عمر صالح إلى أم درمان باحثاً عن مدد وليوضح للخليفة الموقف بدقة، فأرسل الخليفة معه ألفاً من الرجال، بالإضافة لثلاث بواخر وصندل وسبع مراكب بقيادة الأميرين عمر صالح ومحمد حمدنا الله، وعند وصولهم إلى فشودة عملوا على مساعدة عبد الفضيل (١٤) ضد بعض الشلك المتمردين ، لعدة أشهر ثم اتجهوا إلى الجنوب فاضطروا لأن يشقوا طريقهم مرة أخرى بمشقة ومعاناة وسط السدود، وحبسوا في شامبي لعدة شهور، عانوا خلالها من الجوع والحمى وكل أنواع الشدائد ولم يتمكنوا من مواصلة سيرهم حيث لم يبق لعمر صالح سوى ثلاثمائة من رجاله، فكتب للخليفة موضحاً حاله وطالباً منه أن يرسل

إليه جيشاً لنجدة الرجاف عن طريق البر لا النيل الذى لا يمكن الابحار فيه. كما أرسل كذلك إلى عربى دفع الله شارحاً حاله مع أصغر بواخره التى تمكنت من شق طريقها وسط السدود بعد آلاف الصعاب الجمة.

غادر عربى معسكره فى بور فى الحال وذهب إلى غابة شامبى حيث وجد من بقى من رجال عمر صالح فى حالة من البؤس لم يستطع إزاءها أن يمسك دموعه، فترك لعمر بعض المواد الغذائية والذخائر بالإضافة لمائة وخمسين من الرجال يستطيعون أن يفتحوا الطريق وسط السدود، وفى المقابل أخذ مائة وخمسين من بين رجال عمر صالح الأشد مرضاً ثم رجع إلى بور.

وفى هذه الأثناء بدأت الأمطار تهطل غزيرة، فعطلت كل عمل فى السدود، وأصبح الرجال منهكى القوى، لا طاقة لهم على أى نشاط فاستسلم عمر صالح وقرر البقاء فى شامبى حتى نهاية فصل الأمطار، ثم تمكن أخيراً من شق طريقه واللحاق بعربى دفع الله فى بور [١٥].

وكانت خاتمة المطاف لعمر أمام مدينة الرجاف، حيث سقط صريعاً وهو يحمل سلاحه دفاعاً عن المدينة التى فتحها قبل تسع سنوات، لقد تفوق البلجيكيون بعددهم وعدتهم على الأنصار المنهكين ببنادقهم القديمة، إلا أن الأنصار صمدوا خلف أمرائهم، وقد جعلت منهم شجاعتهم الأسطورية ورغبتهم في الشهادة أسوداً ضارية حتى تساقطوا وهم يواجهون العدو بعد أن سحقتهم الأسلحة الحديثة المتفوقة على أسلحتهم.

قاتل عمر حتى آخر نفس فى حياته، وقد ظل يحصد الرؤوس بسيفه ويوجه الضربات القاضية حتي سقط أخيراً وهو يسعى إلى الجنة التى كان يتمناها طوال حياته والتى وعد الله بها كل أولئك الذين يقاتلون فى سبيله.

وستغسل جروحه كل الذنوب التى اقترفها في حياته مثل كل الناس، فإن الشهادة تمحو كل الخطايا، أما ذكراه فستظل خالدة فى الأذهان بصفته رجلاً كان شديد الإخلاص لدعوته وصورة حية لبطل من أبطال المهدية بشجاعته وجلده وتحمله لكل الصعاب والشدائد حتى مات فى سبيل الله ولإعلاء كلمته، ألا رحمه الله وطيب ثراه وأورثه الجنة مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

(١) خطاب عمر صالح إلى الخليفة عبد الله بتاريخ ٢١ صفر ١٣٠٦هـ ٢٧ اكتوبر ١٨٨٨ مهدية ٣٣/١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ولد أمين باشا واسمه الحقيقى هو إدوارد كارل أوسكار ثيودور شنايتز فى عام ١٩٤٠ بأوبلين فى سيلزيا، ودرس الطب ثم التحق بخدمة سلطان تركيا، وفى عام ١٨٧٨ عينه غردون باشا حاكماً على الإستوائية، فقام بمقاومة الأنصار وعندما تمرد عليه جيشه جاء ستانلى لنجدته فى عام ١٨٨٩م، وفى عام ١٨٩٢ قام بعض تجار الرقيق العرب باغتياله بالقرب من شلالات ستانلى.

(٤) لقد دمر هذا الخطاب، الذى كتبه عمر صالح، فى حريق دقلي إلا أننا حصلنا على ترجمة له باللغة الفرنسية من خلال الترجمة الفرنسية لكتاب ستانلى (Dans les Te'ne'bres de l' Afrique) «فى مجاهل افريقيا» ، باريس ، ١٨٩٠، الجزء الثانى، ص ٤٤٥، وهو خطاب بلا تاريخ ، ومن المحتمل جداً أن يكون قد كتب بمجرد وصول عمر صالح لادو في اكتوبر ١٨٨٨م.

(٥)ر.و كولينز، The Southern Sudan 1883-1898: AStruggle for control «جنوب السودان ١٨٨٣ – ١٨٩٨: صراع من أجل السيطرة». لندن، ١٩٦٢، ص ٧٢.

(٦) المصدر السابق ، ص ٦٤.

(٧) خطاب عمر صالح إلي الخليفة بتاريخ ١٣ ربيع الآخر ١٣٠٦هـ، ٢٧ نوفمبر ١٨٨٨م.

(٨) كان عدد الكبابيش يبلغ واحداً وأربعين وثلاثمائة رجلاً بقيادة أميرهم فضل الله أبى سنون، وكان لبنى حسن تسع رايات وتضم فى مجملها ثلاثة وعشرين وتسعمائة رجلاً، إلا أن أسماء أمرائهم لم تذكر فى خطاب عمر صالح إلى الخليفة بتاريخ ٢٢ محرم ١٣٠٧هـ / ١٨ سبتمبر ١٨٨٩م.

(٩) فضل المولى بك محمد هو أحد ضباط أمين باشا من قبيلة الدينكا، ثار بقواته على أمين باشا وزحف نحو عمر صالح، ثم قتله عربى دفع الله فى عام ١٨٩٠م.

(١٠) كولينز، ذكر سابقاً، ص ٨٢.

(١١) المصدر السابق.

(١٢) محمد عثمان أبوقرجة من أمراء الدناقلة، كان يعمل تاجراً للرقيق ثم تبع المهدى منذ بداية دعوته، فعينه المهدي عام ١٨٨٤م أميراً على البحرين «النيل الأزرق والأبيض» عندما حاصر الخرطوم، ثم أرسله الخليفة إلي عثمان دقنة إلا أنهما اختلفا، واتهم بعد ذلك بالاشتراك فى مؤامرة الأشراف في عام ١٨٩١ فأرسله الخليفة أميراً على الرجاف فى عام ١٨٩٢، ثم سجنه عربى دفع الله لتصرفه فى أموال بيت المال إلا أنه تمكن من الهرب في عام ١٨٩٧ وذهب إلي دارفور، وتوفى في أم درمان عام ١٩١٦م.

(١٣) على مختار بكر، هو أحد أقارب الخليفة عبد الله من أمراء التعايشة، كان وكيلاً لعمر صالح. وقد قاد عدة مرات البواخر التى أرسلها الخليفة إلى الرجاف، وتوفى في معركة الرجاف عام ١٨٩٧م.

(١٤) كان عبد الفضيل قد خلف الملك عمر الذى قتله الزاكى طمل في عام ١٨٩١ وحكم عبد الفضيل الشلك، وهو الذى وقع الاتفاق مع مارشاند فى عام ١٨٩٨م.

(١٥) كولينز ، ذكر سابقاً، ص ١٣٣ والصفحات التالية.

عربى دفع الله

عربى دفع الله تعايشى من عشيرة الجبارات، ولقد صحب عائلة الخليفة عبد الله إلى أبى ركبة، وكان أحد الذين تبعوا الأمير يعقوب وعشيرته للحاق بالمهدى وهو فى طريقه إلي قدير حيث بايع المهدى ثم لازمه فى كل حملاته.

وبعد سقوط أم درمان الذي شارك فيه مثل كل محاربى الراية الزرقاء ، صحب يونس ود الدكيم إلى الجزيرة أولاً ثم إلى القلابات، وكان قائداً لأحد الأرباع فى جيش القلابات حيث عمل في البداية تحت إمرة أبى عنجة ثم الزاكى طمل كما شارك فى جميع حملات الحبشة.

وعندما ذهب الزاكى طمل لمحاربة الشلك، استدعى الخليفة عبد الله عربى وأرسله إلى دنقلا وظل بها زماناً حتي نشبت الخلافات بينه هو ومحمد خالد من طرف ومساعد قيدوم [1] من طرف آخر، فاستدعاهم الخليفة، ثلاثتهم، إلى أم درمان ثم أرسلهم مرة أخرى إلي دنقلا، فأقام عربى فى دنقلا بعض الوقت ثم عاد إلى أم درمان حيث أسند إليه الخليفة وظيفة قيادية فى ملازميه.

وعندما شك الخليفة فى أن الزاكى طمل يتآمر عليه، احتج عربى دفع الله بشدة على ذلك الأمر مذكراً بأعمال الزاكى طمل ومبرهناً على إخلاصه، فمثل هؤلاء الرجال لايمكن أن يكونوا خائنين. وعندما حضر الزاكى طمل إلى أم درمان ليرد على الاتهامات التى حاكها ضده أحمد على، قابله عربى دفع الله، الذى كان الخليفة عبد الله قد عينه أميراً على مديرية الاستوائية سراً، ونصحه بالبقاء في معسكره أو العودة إلي القلابات، وأن يرفع دفاعه إلي الخليفة من هناك. أما بالنسبة إليه فإنه لايستطيع أن يقدم أى عون لأنه يتحتم عليه أن يغادر فى الفجر فودع صديقه وذهب كل منهما نحو مصيره.

غادر عربى دفع الله أم درمان فى ٢١ أغسطس ١٨٩٣م في باخرتين وثلاثمائة رجل. وعندما وصل فشودة انضم عربى دفع الله ورجاله إلى الأنصار في حملتهم ضد الشلك، حيث أسر عدداً من الزعماء الشلك وغنم خمساً وعشرين بندقية بذخيرتها. ثم سار فى اتجاه الجنوب، وشق طريقه بصعوبة شديدة وسط السدود حتى وصل بعد رحلة بحرية شاقة إلي الرجاف فى ٢٢ أكتوبر وتسلم مقاليد الأمور بمجرد وصوله حيث عزل أباقرجة وحبسه.

أجرى عربى تحقيقاً جاداً حول نشاط أبى قرجة فى الرجاف. واكتشف أن أباقرجة قد استخدم لأغراضه الخاصة مبلغ الستمائة جنيه التى اقترضها من بيت المال لحاجات الجيش، لذلك كبله عربى دفع الله بالقيود وسجنه وصادر أمواله لتوضع فى بيت المال.

أعاد عربى كذلك تنظيم بيت المال وبنى داراً منفصلة لكى تخزن فيها الغنائم والأسلحة والذخائر التي كانت توضع من قبل فى بيت الأمير، القائد العام للحملة.

كما قام بإرجاع الكثيرين من التعايشة الذين تذمروا من طول مدة خدمتهم فى الاستوائية، وكان بعضهم قد حضر مع عمر صالح، فكانوا يطالبون بالعودة إلى الشمال، لذلك استجاب عربى لطلبهم وقام بإرسال جزء منهم فى أول باخرة غادرت الرجاف إلى أم درمان حاملة رسائله، واحتفظ بالآخرين منتظراً أن يرسل إليه الخليفة قوات أخرى.

وكما حدث لسلفه عمر صالح من قبل، فقد تبين لعربى دفع الله سوء موقع الرجاف مضافاً إليه سوء مناخه، وكان يود أن يقيم معسكره فى لادو متجنباً بذلك السدود التى تنتشر بين المحطتين والتى كانت تجعل من الإبحار أمراً بالغ المشقة والخطورة. كما إن الرجاف كان منطقة قاحلة يستحيل فيها الحصول على الإمدادات حيث كان الجند يقضون أياماً عديدة قبل الحصول على كفايتهم من المؤن. ولكن عربى استفاد من تجربة عمر الذي غضب منه الخليفة عبد الله عندما أقام معسكره في بور، فكتب عربى إلى الخليفة طالباً موافقته[٢]. ولكن كل هذه الأسباب التى ساقها عربى لم تنجح في إقناع الخليفة بقبول فكرة تغيير مكان المعسكر، إذ إنه أصر على أن يظل المعسكر بمنطقة الرجاف.

كما كان علي عربى مواجهة القبائل شبه السوداء المعادية، بالاضافة للغيرة والحساسيات التى كانت تقع بين قواته، غير أنه تمكن بفضل دبلوماسيته وصفاته القيادية من إشاعة الوحدة وتصفية نفوس أمرائه.

فى نوفمبر ١٨٩٣م هاجمت قبائل اللاتوكا قوات الأنصار التى كانت فى طريقها للبحث عن مؤن، مما جعل عربى يقرر الزحف عليهم فهاجمهم في جبالهم التى تحصنوا بها، وبعد قتال مرير هزمت اللاتوكا وأخذ الأنصار كل ممتلكاتهم وأسروا النساء والأطفال، فخضع زعيم اللاتوكا وبعض زعماء القبائل الأخرى. وعاد الأنصار إلى الرجاف منتصرين، وبهذا الانتصار استعادت قوات المهدية هيبتها. كما قام عربى بإرسال بعض الزعماء إلى الخليفة لمبايعته. وكان غرضه من ذلك حرمان هذه القبائل من زعمائها وضمان عدم تمردها. واغتنم هذه الفرصة لتعزيز دفاعه حول الرجاف. وبمجرد اخضاع اللاتوكا تحول اهتمام عربى دفع

الله إلى فضل المولى وإلى خطر البلجيكيين الذى كان يهدد الحدود.

وفى يناير ١٨٩٤م ترك عربى بعض رجاله للدفاع عن الرجاف وذهب بكل جيشه إلى غاندا حيث كان فضل المولى يقيم معسكره. وعندما وصلوا هناك وجدوا المعسكر خالياً، فقد انسحب فضل المولى إلى وادلى بهدف الانضمام إلى البلجيكيين فى الجنوب، فلحق به الأنصار قبل أن يصل إلى وادلى، ودار قتال عنيف قتل فيه فضل المولى ومعظم رجاله، عدا خمسمائة وألف من الجهادية الذين ألحقهم عربى بجيشه وغيرهم من الذين هربوا إلى وادلى، وقد غنم عربى مدفعين حربيين وثلاثمائة بندقية وكمية كبيرة من الذخيرة. ثم قام بإرسال حملة ضد البلجيكيين الذين انسحبوا إلى موندو ورجع إلى الرجاف مع بقية جنوده.

هاجم الأنصار موندو في مارس ١٨٩٤م وكان النصر حليفهم فى بادىء الأمر، غير أن وصول بعض التعزيزات للمحاصرين أجبر الأنصار على الانسحاب، فتجمعوا مرة أخرى وتحركوا لملاقاة البلجيكيين ، وفى هذه المرة انتصروا وواصلوا سيرهم غير أنهم اصطدموا بقوات جديدة والتحموا معها فى قتال مرير حتى أجبروا على التراجع فأقاموا في قرية الزعيم رانزى[٣] ، دورو .

رانزى هو الإبن الثانى لسلطان الزاندى، يامبيو[٤]. ولقد كان سلطان الزاندى عكس ابنه تماماً، فلم يكن يسعي للاستفادة من الطرفين، بل كان يقاتل الأنصار بقوة شديدة، أما ابنه رانزى فقد كان تارة يساعد الأنصار حينما تكون الغلبة لهم وتارة يساعد البلجيكيين حينما يحس بأن الدائرة على الأنصار.

في عام ١٨٩٧م هزم يامبيو الأنصار مما اضطر عربى دفع الله للتقهقر من غرب الإستوائية إلى الرجاف ، ووجد نفسه فى وضع حرج، فقد كان عليه أن يعوق تقدم البلجيكيين، ولم يكن يملك الجيش الكافى القوى لهذه المواجهة إلا أنه قام بإرسال عدد من الرجال تحت إمرة واحد من أكثر وكلائه إخلاصاً وهو بشير مقبول إلى دورو.

ثم قام بإرسال عمر صالح لإحضار رجال وذخيرة من أم درمان، وطلب منه إعطاء الخليفة صورة دقيقة عن الوضع وضرورة إحضار التعزيزات فى أسرع وقت ممكن.

تحرك عمر فى باخرتين غير أن السدود عرقلت سيره، وأضاع زمناً طويلاً وهو يحاول أن يشق طريقه وسط تلك الأعشاب التى كانت تشكل مرتعاً خصباً لأفراس البحر والتماسيح. وأخيراً نجح فى إختراق طريقه وسط تلك الطبيعة القاسية ووصل منهوك القوى إلى أم درمان فى يوليو ١٨٩٥م.

اغتم الخليفة كثيراً عند سماعه الأنباء التى حملها له عمر صالح عن حالة الأنصار فى الاستوائية وكأنما الله غير راض عن الأنصار ، إذ هى هزيمة فى الشمال وأخرى فى الجنوب. كما يهدد الإيطاليون حامية الشرق، وفى الغرب كان محمود يقاتل ضد المكائد القبلية والسلطنات المجاورة الموالية للسنوسى والتى كانت تهاجم الأنصار.

أى ذنب جناه الأنصار وأية جريمة اقترفوها حتى يتخلى الله عنهم؟ هل قصر فى شيء. وهو خليفة المهدى؟ كان الألم يعتصر قلب الخليفة عبد الله وهو لايجد إجابة لهذه الأسئلة التى كانت تشغل فكره. ولما كان إيمانه بالله قوياً فقد توكل عليه وواصل عمله المضنى فقام بإرسال عمر صالح ومعه ثلاث بواخر وصندل وعدد من المراكب المحملة بالرجال وضم إليه الأمير محمد حمدنا الله وكيلاً له. غادر عمر صالح ورفاقه أم درمان فى أغسطس وعندما وصلوا إلى فشودة قاموا بمساعدة عبد الفضيل ضد بعض الشلك المتمردين، حيث قاتلوا إلي جانبه لعدة أشهر وبعد ذلك اتجهوا إلى الجنوب. ومرة أخرى اعترضت السدود طريقهم عند شامبى وعاقت سيرهم. ولما كان معظمهم منهكى القوى ومرضى، فقد أقاموا معسكرهم فى شامبى، وبعد مجهودات شاقة وعنيفة تمكنت أصغر السفن من الوصول إلى الرجاف.

انتظر عربى دفع الله وصول الإمدادات لأكثر من عام ونصف ولكن دون جدوى ، فقام باستدعاء الأنصار، المتفرقين في المنطقة إلى الرجاف، وأرسل بعد ذلك الياس على كنونة إلى أم درمان بالطريق البرى الذي كان يستخدمه الأتراك قديماً.

غادر الياس وصحبه الجنوب قاصدين الشمال، وعند وصولهم إلي التونج هاجمهم النوير حيث قتل الياس ومعظم رجاله فى هذا الاشتباك بينما تمكن بعضهم من النجاة وحملوا نبأ الكارثة إلى عربى.

فجع عربى دفع الله بنبأ آخر، حين تسلمه لخطاب عمر صالح الذى يصف فيه حالة جنده، وكان عليه أن يسارع إلى نجدته، فتحرك فى التو إلى شامبى ومعه مائة وخمسون من جنوده. التقى عربى وجنوده بالثلاثمائة المتبقين من جيش عمر الذى كان يتكون من ألف رجل أرسلهم الخليفة، وقد كان الجيش كله يعانى من الجوع والمرض. ترك عربى رجاله مع عمر صالح وأخذ المرضى من جنود عمر إلى بور حيث أقام معسكره.

حاول عمر صالح إزالة السدود بمساعدة جيش عربى، ولكن لسوء الطالع أخذت الأمطار فى الهطول، مما عرقل سير العمل فأجلت المحاولة إلي وقت آخر. غادر عربي بور مرة أخرى وعاد إلى عمر صالح لاستكشاف الوضع، فوجد أن معظم رجاله مرضى. عقد مجلساً حربياً

مع عمر صالح ومحمد حمدنا الله وقرر على إثره إرسال باخرة إلى أم درمان لطلب العون، وقد حاول الرجال شق طريقهم حتى الرجاف. وكلما تمكنوا من قطع الأعشاب، كانت تنبت ثانية بسرعة مذهلة كأنها أخطبوط يخنقهم بأذرعه الغليظة ويسد الطريق أمام تقدمهم، وكانوا لا يكادون ينتهون من القطع حتى يبدأوا فيه من جديد . وبعد صعوبات جمة وصلوا إلى الرجاف، ولم يكن بالمعسكر سوى ألف من الرجال، وكانت تنقصهم الذخيرة والإمدادات. وكان كل رجل منهم يتسلح بحربة اضافة الى بندقيته.

كان عربي يتساءل بقلق عن الطريقة التي يمكنه مواجهة البلجيكيين بها إذا لم تصله الإمدادات. وتوكل على الله إلا أنه كان يعلم أن عليه أن يفكر ملياً في إيجاد حل، ثم أخذ كل رجاله الموجودين في بور وأقام في الرجاف التى أحسن تحصينها.

قلب رانزى ظهر المجن للأنصار للمرة الثانية وتحالف مع البلجيكيين الذين كانوا يتقدمون عبر أراضيه نحو الرجاف.

دعم عربى الرجاف بإقامة زريبة ضخمة حول المنطقة ووضع بها ثلاثة مدافع. وكان عدد رجاله يقارب الألف والأربعمائة، ولكن الجوع أجبرهم على مداومة الهجوم على القرى المجاورة للحصول على طعامهم.

واضطروا للتوجه إلى بلاد الزاندى عندما نفد الغذاء من حولهم، ودخل عربى بلاد الزاندى جاهلاً تقدم البلجيكيين نحوه. وكان الزاندى قد نصبوا له كميناً بالقرب من إحدي قرى يامبيو، فدار قتال عنيف بين الطرفين انتصر فيه الأنصار وقاموا بتحصين القرية التي استولوا عليها، وسعى الزاندى خلال شهر كامل لإخراج الأنصار ومعهم غنائم لا بأس بها ولكنهم فقدوا حوالى المائة وعشرين من رجالهم، وكان من بينهم عدد من الأمراء.

عاد عربى إلي الرجاف في فبراير ١٨٩٧م وأرسل بعض عيونه لاستكشاف مكان وجود البلجيكيين. وحينما علم بوجودهم فى بدين أرسل فرقة تتكون من ألف ومائتى رجل بقيادة الأمير محمد على بادى لإيقاف تقدمهم. أما عربى فقد عسكر فى الرجاف وتحت إمرته حوالى الأربعين رجلاً.

وصل محمد علي بادى ورجاله بالقرب من بدين في مساء السادس عشر من فبراير ١٨٩٧م. وفى صباح اليوم التالى شكلوا ربعاً فوق الصخور المطلة علي سهل بدين حيث يمر الطريق المؤدى إلى الرجاف وفى حوالي الثامنة صباحاً تقدم الأنصار نحو البلجيكيين حيث التحم الجيشان. كانت الغلبة فى البداية للأنصار، ولسوء الحظ فقد وصل جند رانزى وشقوا

صفوف الأنصار ودار قتال عنيف بين جيش رانزى والأنصار، حيث تكبد فيه الأنصار خسائر فادحة. كان الأمير محمد علي يقاتل على رأس جيشه حتى استشهد. وقد تراجع الأحياء منهم إلي الرجاف وفى أثرهم البلجيكيون الذين وصلوا عند الأصيل واصطدموا بطلائع الإستكشاف الأنصارية. وفتح البلجيكيون عليهم النيران وفى النهاية كانت الغلبة للبلجيكيين الذين احتلوا الزريبة ثم الموقع العسكرى. أما الأنصار فقد احتموا بضفة بحر الغزال وأدرك عربى أن الوضع ميئوس منه، وحينما أرخى الليل سدوله انسحب عربى ورجاله إلى بور وتحصنوا بها ، ولكن خسارتهم كانت فادحة فقد استشهد كل الأمراء تقريباً ومعهم الكثير من رجالهم فى الرجاف. أما عربى فلم يكن معه سوى سبعمائة رجل والقليل من الأسلحة والذخيرة، ورغم هذا كله فقد ظل ثابت الجنان، وكان يحرص دائماً علي رفع الروح المعنوية لرجاله الذين بدأ اليأس يدب في نفوسهم، فقام عربى بإعادة تنظيم جنده وإقامة التعزيزات حول بور. ومن ثم قام بتسليح كل رجاله بالحراب وقاد عدة حملات على القرى الموجودة من حوله وخاصة على الدينكا. وأمضى عاماً كاملاً في انتظار النجدة وإحباط المؤامرات هنا وهناك. كما قام بمعاقبة مدبرى إحدى محاولات الاغتيال، حيث قام اثنان من الجهادية هما يوسف الكاتب وبخيت رأس المية بمحاولة لاغتياله والاستيلاء على الباخرة والانضمام إلى البلجيكيين ، ولكن المؤامرة كشفت وتم إعدامهم أمام الجيش وذلك فى ربيع الأول ١٣١٦هـ الموافق يوليو ١٨٩٨م[٥] .

رغم كل هذه المصاعب فقد تمكن عربى من مواجهة هذا الموقف العصيب، وظل طوال الوقت ينتظر وصول النجدة من الخليفة، ولكنه كان يجهل أن الخليفة قد انسحب إلى كردفان لمواصلة القتال بعد هزيمته فى كررى.

وفى شهر مايو حاول عربى استعادة الرجاف حيث تمكن الأنصار بعد معركة عنيفة من الدخول إلى الرجاف إلا أن البلجيكيين تمكنوا من صدهم إلى بور. بيد أنهم كرروا محاولاتهم ضد البلجيكيين مرات عديدة. وفى نوفمبر تحركت قوة بلجيكية – انجليزية إلى بور، وحينها فقط علم عربى بالأحداث الأخيرة، معركة كررى وسقوط أم درمان وانسحاب الخليفة إلى كردفان. كما إن كتشنر كتب إلى عربى طالباً منه الاستسلام.

فقام عربى بإحراق كل البواخر وتحرك بعد ذلك إلي الشمال غربى بور. كان يريد بذلك اللحاق بالخليفة ومساعدته بنفسه ورجاله. ووصل بعد مسيرة شاقة عبر مستنقعات بحر الغزال إلى بحر العرب، ومن ثم إلي دار كلكة حيث قام في عام ١٨٩٩[٦] ببناء زريبة حصينة ثم

ذهب لنجدة شيخ الرزيقات الشيخ موسى مادبو [٧] والذى هاجمه سلطان الفور على دينار [٨] ولكن موسى خدع عربى دفع الله، فانسحب إلي دار التعايشة حيث رفض كل محاولات السلام التى قام بها السلطان علي دينار.

أرسل عليه السلطان على دينار حملة بمساندة الرزيقات، كما أرسل الإنجليز حملة أخرى بقيادة عبد الرحيم بك سليم أبى دقل إلى ماندوا حيث يوجد عربى، وفى ديسمبر ١٨٩٩م كان عربى مواجهاً بالقتال على جبهتين مختلفتين، وقد بات الأمر واضحاً بتعذر مواصلة المقاومة لزمن طويل، وعند ذلك علم عربى باستشهاد الخليفة وأن دولة المهدية لم تعد إلا فى قلوب الذين آمنوا بها وضحوا بأرواحهم من أجلها.

كتب عربى إلى أبى دقل يخبره باستعداده للتسليم وفقاً لشروط معينة، غير أن أبا دقل رفض ذلك، بل طلب منه الاستسلام والقبول بأن يعامل هو ورجاله أسرى حرب.

فرفض عربى بدوره ذلك، ورغم ذلك فقد جرت بعض المفاوضات. وفى تلك الأثناء أطلق أبودقل النيران على معسكر الأنصار غير أن ضابط الاستخبارات حسن وراق عمل على تهدئة النفوس ووقف إطلاق النار، ووصل إلى تسوية مع عربى ولكن أبا دقل رفض هذه التسوية وتمسك بشروطه.

قام عربى بمهاجمة معسكر أبى دقل لعدة أيام حتى نفذت ذخيرة ومؤن أبى دقل واضطر إلى رفع معسكره، وغادر عربى بعد ذلك إلى دار التعايشة متوجهاً إلى حفرة النحاس. وفى الطريق قام بعدة غزوات فى الجوار. فاستنجد شيوخ هذه القبائل بالسلطة فى الخرطوم.

كان عربى يريد التسليم للسلطة الجديدة، فقام بعدة محاولات طالباً فيها ترك إدارة بحر الغزال له لصالح حكومة الخرطوم، فقبلت حكومة الخرطوم بذلك وجرت عدة مفاوضات، ولكن خوف عربى من الخيانة جعل منه رجلاً حذراً جداً فضاق رجاله ذرعاً بهذه الحياة وتمردوا عليه فى عام ١٩٠٢م. وانسحب عربى ومعه حفنة من الرجال المخلصين إلي ضفاف نهر أبره حيث هاجمه على دينار وأجبره على الاستسلام [٩].

فانضم كل أفراد جيشه البالغ عددهم ستمائة رجل ويملك كل واحد منهم بندقيته إلى جيش على دينار. وظل عربى فى الفاشر يقاتل جندياً فى جيش على دينار حين تتاح له الفرصة [١٠]، ولم يكن على دينار يثق فى عربى فقد كان يظن أنه يتآمر عليه.

وفى عام ١٩١٦م اتهم علي دينار – قبل استسلامه – عربى بالتورط فى الاتصال بحكومة الخرطوم وحكم عليه بالإعدام [١١].

عربى دفع الله أحد أشجع أمراء المهدية وأكثرهم حنكة، واجه الموت بعيداً عن ميدان المعركة وبلا مجد، مات من أجل قضية ليست قضيته وهو الذى كان يبحث طيلة حياته عن الشهادة ، فيا لسخرية القدر فى بعض الأحيان.

(١) مساعد قيدوم : أحد أمراء الهبانية، عمل وكيلاً مع عبد الرحمن النجومي، ثم مع يونس الدكيم، وكان على خلاف مع الاثنين، وقد استدعاه الخليفة إلى أم درمان وأرسله إلى دنقلا، وذلك لأن جنود رايته كانوا لا يأتمرون بأمرة أحد غيره . ثم ذهب في عام ١٨٩١م إلى كسلا حيث نشبت خلافات بينه وبين أحمد فضيل، وفي عام ١٨٩٤م دافع بشدة عن كسلا،غير أنه اضطر في نهاية الأمر إلى الفرار إلى قوز رجب. ثم انضم بعد ذلك إلى جيش الشمال وأصبح واحداً من المحرضين في المؤامرة القذرة التي دبرت ضد محمد ود بشارة في دنقلا عام ١٨٩٦م.

(٢) خطاب عربي دفع الله إلى الخليفة عبد الله بتاريخ ١٢ جمادى الآخرة ١٣١١هـ الموافق ٢١ ديسمبر ١٨٩٣م، المهدية ٣٢/١ .

(٣) رانزي أحد سلاطين الزاندي – الابن الثاني لواندو وابن أخ يامبيو. تقع قريته، دارو بالقرب من نهر دورو أحد روافد نهر أويلي. كان تارة يساعد الأنصار، وتارة يساعد البلجيكيين حسب ترجيح كفة كل منهما.

(٤) يامبيو أو أمبيو: سلطان الأزاندي – وهو ابن باسيمو زعيم ندورما – كان والده ومجموعة قوية من الزاندي قد غادروا نهر يوبو، وهاجروا نحو الشرق إلى نواحي مدينة يامبيو الحالية، وكان ذلك في عام ١٨٦٠م. كان يساعد البلجيكيين أحياناً ويقاتل الأنصار طوال الوقت. وبعد نهاية دولة المهدية أبدى عداءه الواضح للبلجيكيين ولقوات حكومة السودان فقبض عليه في عام ١٩٠٥م. وجرح جرحاً تسبب في موته حيث توفي بالمستشفى بعد ثلاثة أيام من اعتقاله.

(٥) خطاب عربي دفع الله إلى الخليفة عبد الله بتاريخ ١٢ ربيع الأول ١٣١٦هـ الموافق ٣١ يوليو ١٨٩٨م، تقرير مخابرات السودان، رقم ٦٠، ملحق رقم ٦٣ ص ١٠٤ – ١٠٨.

(٦) كولينز ، ذكر سابقاً، ص ١٧٢ – ١٧٣م.

(٧) ابن شيخ الرزيقات مادبو علي الذى قتله حمدان أبوعنجة في عام ١٨٨٦م. خلف موسى والده على زعامة القبيلة واستدعى إلى أم درمان عام ١٨٩٥م حيث سجن وذلك بعد اتهام الخليفة له بمساعدة سلاطين باشا على الهرب. ظل في السجن عاماً كاملاً ثم أطلق الخليفة سراحه بعد ذلك، فهرب من أم درمان مع نفر من قبيلته عشية معركة كررى. في البداية قاتل علي دينار ثم تحالف معه بعد ذلك وتوفي عام ١٩١٢م.

(٨) علي دينار – ابن الأمير زكريا بن السلطان محمد الفضل، ولد سنة ١٨٦٥م. هاجم عام ١٨٩٨م ملك تقلي علي رأس بعض جنود المهدية. حينما علم بهزيمة الأنصار في معركة كررى غادر ورجاله إلى دارفور، وخضع للحكومة الإنجليزية المصرية، ودفع لها الجزية ثم ثار عام ١٩١٦ ومات وهو يحارب في كولور جنوب زالنجي.

(٩) كولينز ، ذكر سابقاً ، ص ١٧٤ – ١٧٦.

(١٠) الاستخبارات، ١٢/٣/١١، تقرير الاستخبارات السودانية، رقم ١٠٤ من ١ إلى ٣١ مارس ١٩٠٣م – ص ٢٤ – ٢٦ .

(١١) كولينز، ذكر سابقاً، ص ١٧٧.

أحمد فضيل

أسرع الأمير أحمد فضيل فى سير حثيث نحو أم درمان ، فقد ذهب بأمر من الخليفة عبد الله لتجنيد قوات من القضارف والقلابات وإحضارها لحماية أم درمان التى يهددها أعداء الإسلام. ولم يكن بعيداً من أم درمان عندما جاءه النبأ الصاعق بأن أم درمان قد سقطت وأن الخليفة قد هزم فى كررى، ونجا من الأعداء الذين أخذوا يضيقون عليه الخناق وأنه جمع من بقى حياً من جيشه واتجه إلى كردفان.

توقف الأمير لبعض الوقت وقرر أن يكتم خبر تلك النكبة عن جنوده، وتقدم نحوهم وأفادهم بأن الخليفة المنتصر ليس بحاجة إلى عونهم ولكن الواجب يملى عليهم التوجه إلى الغرب. وكان الأمير يأمل فى اللحاق بالخليفة بأى وسيلة ويود أن يتوقف قليلاً ثم يواصل سيره إلى كردفان.

جاء إليه رسولان من جانب العدو يحملان رسالة من سلاطين فيها عروض مغرية ، لكن الأمير الصارم استشاط غضباً ووجه ضربة بسيفه أطاحت برأس أحد الرسولين، وبعد أن ضرب الآخر بعرض سيفه قال له:

– « قل لهذا الكلب الذى أرسلك والأتراك الكفرة الذين يخدمهم، إن جندىّ الله وجندىّ المهدى خليفته لا يستسلم، بل إنه يموت من أجل قضيته وإننى سأقاتل حتى النهاية. احمل ردى لذلك المرتد الذى خان إيمانه مرتين وأعلمه أن مثواكم جهنم جميعاً أنتم وهم. أما بالنسبة إلينا أيها الأصحاب فلنلحق بخليفة المهدى لنقاتل ونموت بجانبه وسيرزقنا الله إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، هيا فلنتحرك لقد اضعنا وقتاً كبيراً جداً» [١].

قفل الأمير بجيشه عائداً ومحاذياً الضفة الشرقية للنيل الأزرق ليعبره عند التقائه برافده الرهد. بالرغم من أن الرجال كانوا يتذمرون ويودون الرجوع للقضارف حيث توجد أسرهم وحيث تتوافر لهم المؤن والذخائر، غير أن الأمير أحمد فضيل رفض ذلك وواصل سيره. وقبل رفاعة لحق به الأمير الشريف يوسف الهندى[٢] الذى خضع للإنجليز بعد أن فارق الخليفة عقب معركة كررى. وكان الخليفة قد أمره هو وبعض العلماء المتبحرين فى علوم الدين الإسلامى بالرجوع إلى مناطقهم وأن يعملوا علي تعليم القرآن حتى لايخبو نور الإسلام[٣].

رجع الشريف لأم درمان وأمره الإنجليز بالذهاب لمقابلة الأمير أحمد فضيل وحثه على الاستسلام. تحدث الشريف يوسف إلى الأمير أحمد فضيل وحاول إقناعه بأن الأمر قد قضى وأنه من الأفضل له الخضوع وانتظار غد أفضل، فرد عليه أحمد فضيل بقوله:

– نحن بايعنا المهدى وبايعنا خليفته على ألا نفر من الجهاد إما أن نستشهد أو ننتصر، ولئن فتشتك فإنى واجد أمارات الكفرة فى جيبك، وأنا لابد أن ألحق بخليفة المهدى ولو علي سنقور جوادى [٤].

وفارقه وقفز على جواده آمراً جنوده بالتقدم.

إلا أن السخط قد تزايد وسط جيشه وبعد فترة قليلة من لقائه بالشريف يوسف الهندى وبعد أن أقام معسكره جاءه أحد ساسة الخيل لمقابلته وقال له:

« سيدى إن الأمير على فرفار والأمير فضل حسنة [٥] زيدان يريدان اغتيالك وإننى كشفت دسيستهم وعرفت ذلك ».

وقالا لى:

– إما أنك معنا وتقسم على ذلك، أو أنك ضدنا وفى هذه الحالة سنقتلك.

وفكرت فى أن موتى سيكون سبباً لموتك فأقسمت لهما على نحو ما أرادا فتركانى حراً، فحنثت اليمين لأن حياتك أهم من حنثى اليمين» قال له الأمير أحمد فضيل:

لا جناح عليك، الله يعلم نواياك، عليك فقط صيام ثلاثة أيام كفارة يمين، أما أنا فإننى أعلم ماذا على أن أفعل.

جرد الأمير سيفه وأخفاه تحت وسادته وتمدد فى فراشه كأنه نائم، تسلل على فرفار للخيمة معتقداً أن الأمير أحمد فضيل يغط فى النوم فإذا بالأخير يباغته ناهضاً، ويأخذ سيفه ويضربه على كتفه بعرض السيف قائلاً:

أعرف كل ما تدسونه . اخرج أيها الكلب.

خرج علي فرفار يكسوه العار وذهب لمقابلة فضل حسنة وقال له :

– إن أحمد كان يعلم بالأمر كله، عاملنى باحتقار ولم يعطنى حتى شرف الخوف منى أو حتى مبارزتى إذاً فعلينا أن نتوب.

حضر الاثنان لمقابلة أحمد فضيل وقالا له:

– لقد أغوانا الشيطان، اعفُ عنا لعل الله يقبل توبتنا.

عفا عنهما أحمد فضيل [٦] ومنذ ذلك اليوم لم يفارقاه بل حاربا معه بإخلاص وشرف ولم

يحاولا بعد أن يثنيا الرجال عن واجبهم.

وفي معركة النخيلة كانا قد امتنعا عن القتال، ليس جبناً إذ إن الجبن لا يعرف طريقه إليهما، بل غيرة من محمود ود أحمد فقد كان الإثنان يقودان جناحي الجيش وبامتناعهما عن الحرب إنما أرادا أن يثبتا للخليفة أنه أخطأ حين سلم قيادة الجيش لقائد صغير السن كمحمود، بينما كل أصحاب المهدى الذين تمرسوا فى الحرب وبرعوا فى حيلها مازالوا موجودين. وبعد هزيمة محمود وأسره فرا إلى القضارف وطلبا من أحمد فضيل أن يتوسط لهما لدى الخليفة فهما يعرفان الحب العميق الذى يكنه للأمير أحمد وظنا أنهما سينالان عفوه بتدخل الأمير.

عقب هذه الحادثة تحرك الأمير أحمد فضيل وواصل سيره الشاق، وعند ملتقى النهرين وجد أن الطريق قد سيطرت عليه مدافع العدو، هناحار الأمير بين أمرين: أيقاتل أم يعود للقاعدة؟! وكان يبدو علي رجاله عدم الثبات ، فتقهقر الأمير، وعندما وصل إلي القضارف وجد أن المدينة قد استسلمت، وهنا صار الأمر جلياً إذ لا مجال هذه المرة للتردد بل يجب اللحاق بالخليفة مهما كلف ذلك. وتحرك الأمير وهو أكثر قوة يتبعه رجاله دون تذمر، وعند وصوله لمدينة الروصيرص وجد العدو فى انتظاره هناك واشتبكوا معه فى معركة فقد فيها الأمير عدداً كبيراً من جنوده ولكنه تمكن من عبور النيل علي الرغم من نيران مدافع العدو المشتعلة وبعد لأى وبلاء عظيم تمكن الأمير من الانضمام لرجال الخليفة بكردفان ومعه عدد قليل من رجاله.

كان هجومه بطولياً وجنونياً ينم عن شجاعة لاتكبح وبسالة خارقة وجسارة لا حدود لها، له قلب لايعرف معنى الخوف يناضل نضال الإنسان الذى لايعنى الموت عنده إلا الموت فى سبيل الله.

كان يخوض المعارك من معركة إلى أخرى ويواجه هجوماً بعد هجوم حتى لقى ربه فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩م بأم دبيكرات حيث كان يحارب ببسالة كعادته ويحث رجاله. كان سيفه يبارز ويجندل، وكان عرقه يسيل على جبينه ويمتزج بالغبار والدم مكوناً قناعاً مخيفاً، كان كأنه فى جفن الموت والموت نائم بينما يتساقط الأعداء من حوله، وهو يجاهد غير سامع ولا راء سوى عدوه أمامه، حتى سمع صوت الخليفة يناديه، الأمر الذى أعاد إليه وعيه وجعله يفطن لوضع المعركة، خسران المعركة وتمزيق جيش الخليفة عبد الله إرباً إرباً.

تربع الخليفة على الأرض واتجه ناحية القبلة، لم يعد هناك ما يمكن عمله، والموت أفضل من عار التقهقر والرجوع، وكانت هذه تقاليد أبطال السودان القديمة حينما يخسرون الحرب

وعندما ينقطع الأمل من نفوسهم بالنصر. مازال أحمد فضيل ملازماً للخليفة فالاثنان من قبيلة التعايشة ومن عشيرة الجبارات وعبد الله ليس فقط خليفة المهدى بل هو ابن خاله، فصلة الرحم والإخلاص قد اجتمعتا.

أمه حواء بنت على الكرار وهى أخت شيخ محمد والد الخليفة عبد الله الذى كان يحبه كابنه، ففى صغره صحبه معه فى معارك المهدى، ثم أرسله لكردفان مع عثمان آدم، بعدما أوكل إليه قيادة ملازميه. وبعد موت أحمد على أرسله لقيادة جيش الشرق المرابط بالقضارف، ولم يكن فى ذلك الوقت قد بلغ الثلاثين، وبالرغم من ذلك فقد كان محارباً محنكاً ومؤمناً مخلصاً يربطه بخليفة المهدى حب عظيم، وقد كان يتبعه فى حياته، وها هو الآن يتبعه إلى الدار الآخرة. وشق طريقه مقاتلاً حتي جلس على يسار الخليفة. وطاف الموت بجناحيه عليهما ودوت الطلقات فسقطا، وكانت النهاية وقضى الأمر. فهنيئاً للذين يموتون فى سبيل الله فسيسعدون فى جنب الله بدون أدنى شك.

(١) تشرشل ونستون، حرب النهر :The River War، لندن ، ١٩٦٠م، ص ٣١٥.

(٢) يوسف محمد الأمين الهندى زعيمٌ دينى ولد فى عام ١٩٦٥م، اعتنق المهدية وشارك فى عدة معارك في شرق السودان كما شارك في معركة كررى، توفى فى عام ١٩٤٢م، ودفن فى برى، وهو مؤسس الطريقة الهندية، إحدى فروع السمانية.

(٣) هؤلاء العلماء هم الشيخ ود البدوى والشيخ البشير ود مضوى والفكى رقيق أبو فاطمة والشيخ المكاشفي أبو عمر بالإضافة للشيخ يوسف الهندى، أخبرنا بذلك مهدى الطيب الأمير يعقوب.

(٤) ذكر هذا صالح بن الأمير أحمد فضيل لمهدى الطيب الأمير يعقوب.

(٥) أميران من التعايشة كانا يقودان رايتين فى جيش الغرب، ثم احتلا مواقع فى شمال السودان وحاربا في النخيلة ثم فى أم دبيكرات حيث أسرا وأرسلا إلى رشيد.

(٦) رواية مهدى الطيب الأمير يعقوب.

كرم الله شيخ محمد كركساوي

في عام ١٨٨١م حملت الأخبار نبأ اهتزت له بحر الغزال، وهو أن المهدى المنتظر قد ظهر فى الجزيرة أبا على النيل الأبيض. وأخذ التجار العرب الذين كان أكثرهم من الدنقالة والجعليين يتحدثون عن هذا النبأ بحماسة شديدة. فقد بلغهم أن المهدى قد صمد فى وجه قوات الحكومة التى أرسلت للقبض عليه، وأنه قد هزمها ثم رحل بعد ذلك إلى جبال النوبة بكردفان ودعا الناس لأن يلحقوا به للجهاد فى سبيل الله.

وهبت رياح الثورة على بحر الغزال، حيث قام تجار الرقيق وغيرهم بتسليح جنودهم وتجميع قواتهم التى كان موظفو الحكومة قد شتتوا شملها، واتجهوا جميعاً إلى كردفان للحاق بالمهدى، وكان بين هؤلاء التجار أبناء تاجر الرقيق محمد كركساوى (١) وهم محمد وسليمان وكرم الله، حيث ترك كل منهم تجارته وتوجهوا إلى كردفان. وفى الطريق علموا أن المهدى يحاصر الأبيض فسارعوا لملاقاته هناك، حيث بايعوه وقاتلوا بجانبه حتى فتحت المدينة.

ثم شاركوا فى معركة شيكان ، وبعد أن تحقق النصر قام المهدى بتعيين كرم الله أميراً على بحر الغزال وأرسله لفتحها. أما أخواه فبقيا يحاربان فى الغرب ضمن قوات الراية الحمراء.

كان كرم الله فى الخامسة والعشرين من عمره فى ذلك الحين، متوسط القامة، ليس بالسمين ولا بالنحيف، فاتح اللون، يحمل خداه شلوخ القبيلة الثلاثة، وله أنف مستقيم، وشفتاه ممتلئتان، كثيف شعر الرأس ويزين وجهه لحية وشارب مهذبان.

كان يلبس جبة مرقعة، وكان صارماً فى تعامله مع نفسه ومع الآخرين. كان شجاعاً وصبوراً يتحمل الشدائد بلا أدنى شكوى، ويروى أن رمحاً شك جنبه الأيمن فى معركة شيكان حتى سالت دماؤه، فطلب من خادمه أن ينزع الرمح، فتدفق الدم غزيراً إلا أنه قفز على جواده من غير أن يلقى بالا للدماء المتدفقة حوله وواصل القتال (٢).

كان كرم الله أنفاً وشجاعاً وماهراً فى الحرب وحيلها، وكان يعرف كيف يحسن قيادة الرجال، كما كانت له قوة خاصة من البازنجر (٣) وهم جند نظاميون ومدربون كان يخوض

بهم كل معاركه.

غادر كرم الله الأبيض علي رأس ألف وخمسمائة من الرجال. وفي الطريق انضمت إليه مجموعات كبيرة من رجال القبائل. وعندما وصل إلى بحر الغزال كان معه خمسة آلاف من الرجال، إذ كان قد انضم إليه كل الجعليين والدناقلة وكذلك القبائل شبه السوداء التي لبت دعوة المهدية للجهاد.

حاول لبتون بك حاكم بحر الغزال الإنجليزى الدفاع، ولكن ضباطه وجنوده أخبروه أن الجميع قد تبعوا المهدية وأنهم قرروا الانضمام لكرم الله، فاضطر لبتون للاستسلام لأنه لم يكن لديه ما يكفى من القوات. وكان مع كرم الله فى ذلك الوقت عشرة آلاف رجل فقرر أن يزحف نحو الإستوائية وبدأ فى التقدم نحوها لكنه اضطر للرجوع إلى بحر الغزال عندما نشبت بعض حركات التمرد بين الجهادية والعرب، فأعاد الأمور إلى نصابها. ولكنه لم يتمكن من ضم الإستوائية رغم المحاولات العديدة التي قادها ضدها.

عقب وفاة المهدى قام الخليفة عبد الله باستدعاء كرم الله إلى أم درمان لأداء البيعة. وأمره بإخلاء بحر الغزال والحضور إليه بكافة قواته، فتحرك كرم الله ملبياً دعوة الخليفة. وفى الطريق تلقى أمراً من الخليفة يطلب إليه الاتجاه إلى غرب البلاد لمساعدة أخيه محمد فى إخماد تمرد الرزيقات.

حث كرم الله الخطى نحو دارفور ووصل بعد ليلتين من السير إلى الفاشر التى كان مادبو زعيم الرزيقات يسعي للإحتماء بها، فقبض عليه يوسف ابراهيم عامل دارفور، وسلمه لكرم الله الذى أرسله إلى أخيه محمد عامل شكا. بقى كرم الله فى دارفور لمساندة أخيه، ثم عينه الخليفة عاملاً علي دارة، وكان كلا الأخوين مهددين بالأمير يوسف الذى كان يسعى لزعزعة سلطة المهدية ولضمان استقلال دارفور. ودارت بينهم عدة معارك دامية فقد فيها الأخوان رجالهما وأصبحت تنقصهما الذخائر وقام الفور بمحاصرتهم، فطلبا النجدة من الخليفة عبد الله الذى كتب بدوره إلى عثمان آدم عامل كردفان يأمره بالذهاب لنجدة الأخوين ومدهما بالسلاح والذخيرة. فسار عثمان آدم سيراً حثيثاً حتى وصل إلى شكا التى كان محاصراً بها محمد الشيخ محمد كركساوى، وتمكن من تخليصه من الحصار [٤].

انضم محمد لعثمان آدم وزحفا على دارة التى كان الفور يحاصرونها، وكان كرم الله يسعى لاستعادتها. وبعد عدة معارك عنيفة انتصر الأنصار ودخلوا دارة فى يوم ٢٧ ديسمبر ١٨٨٧م الموافق ١١ ربيع الثانى ١٣٠٥هـ [٥].

لازم الأخوان عثمان آدم حتى وفاته عام ١٨٩١م ثم رجعا إلى أم درمان حيث شاركا في مؤامرة الأشراف.

وعندما عاقب الخليفة الأشراف قام باستدعاء أبناء كركساوى مع أمراء الراية الحمراء وقال لهم:

- « أنتم لستم من المقيمين، هم الذين حضروا الفتن من أولها واشتركوا فى تدبيرها. وانما أنتم كنتم فى البغازات «الثغور» خارج أم درمان وجئتم فانضممتم لهذه الفتن فجأة دون تدبير وإصرار، فلذلك عفوت عنكم ولا أريد أن أقدمكم لمحكمة، ولكن حكمى فيكم أن تسافروا إلي كسلا للانضمام إلى الجيوش المرابطة بها تحت رئاسة حامد ود على، لتشتركوا فى الجهاد ولتنالوا ثواب الشهادة أو النصر » (٦).

فذهب سليمان ومحمد مع رفاقهما إلى الشرق، ولحق كرم الله بجيش الشمال حيث جرح جرحاً بليغاً في فركة، ثم قاتل فى النخيلة ورجع بعد ذلك إلى أم درمان مع من بقي من جيش محمود ود أحمد. وهناك التقى بأخويه مرة أخرى.

ومما يجدر ذكره أن الخليفة قد تزوج آمنة أخت كرم الله لتوثق صلته بقبائل النيل وأنجبت له ابنته مريم التي تزوجها ابن عمها عبد المجيد بن الأمير يعقوب.

قاتل كرم الله وأخوه في كررى وبعد الهزيمة بقيا فى أم درمان، وقد حاول سلاطين إقناع كرم الله بخدمة الحكومة الجديدة ولكن الأمير رفض، وفى هذه الأثناء سعى السلطان على دينار كذلك لضمه إلى رجاله، فقد كان يعرفه منذ وقت طويل، إلا أنه كان يدرك أن كرم الله لن يقبل الدخول فى خدمته طائعاً مختاراً، فاستدعى السلطان اثنين من رجاله الذين يثق فيهم وقال لهما:

- خذا هذين الجملين المحملين بالذهب واذهبا إلي أم درمان وابحثا عن أقرب أصدقاء كرم الله إليه وكاتم سره، وأعطياه هذا الذهب فى مقابل شيء واحد، وهو أن يسرق سيف كرم الله، ولاترجعا بدون هذا السيف.

وكان هذا السيف مشهوراً بحدته وبقصته الاسطورية. ففى أحد الأيام الشديدة المطر، سقطت صاعقة على منزل كرم الله في أم درمان وأحدثت حفرة كبيرة، وعندما أراد عبيد كرم الله زيادة عمق تلك الحفرة لكي يجعلوا منها بئراً وجدوا فيها كتلة من الحديد، فأخذ كرم الله تلك الكتلة إلى الحداد وطلب منه أن يصنع منها سيفاً، وبمجرد أن أنهى صنع السيف تقلده كرم الله وسماه «الصاعقة». وكان هذا السيف يقصم العدو بضربة واحدة، وكان كرم الله

يخوض به كل معاركه ولايفارقه إلا للصلاة.

ذهب الرجلان وقابلا صديق كرم الله الحميم وأعطياه الذهب ونقلا إليه رغبة السلطان، فاستغل ذلك الصديق لحظة ذهاب كرم الله لأداء الصلاة فى المسجد وسرق السيف وأعطاه للرسولين، ثم أسرج جمله وهرب معهما خوفاً من غضب كرم الله.

وعندما رجع كرم الله إلى منزله لم يجد السيف فى موضعه المعتاد وسأل زوجته :

– أين سيفى؟.

فردت عليه:

– لست أدرى.

– ومن الذى حضر فى غيابى؟!.

– لست أدرى.

خرج كرم الله من داره وأخذ فى التحرى حتى انتهى إلى أن صديقه قد حضر إلى منزله فى غيابه وأنه أسرج جمله وغادر أم درمان في صحبة رسولى السلطان علي دينار.

ركب كرم الله جمله وانطلق في اثرهم، وعندما وصل إلى الأبيض حاول المكي اسماعيل ابن الشيخ اسماعيل الولى أن يثنيه عن الذهاب إلي دارفور خوفاً من انتقام السلطان، فرد عليه كرم الله بقوله:

– لن أترك سيفى، يجب أن استعيده أو أموت دونه.

ووصل كرم الله إلى الفاشر فى نفس اليوم الذى وصل فيه مبعوثا السلطان اللذان وصلا فى الصباح ووصل كرم الله فى المساء، وأعلن وصوله للسلطان الذى أمر بأن يستقبل كرم الله بحفاوة وتقدير.

ولما انتهت مظاهر الاحتفاء به ضيفاً ، استقبله السلطان وأعطاه سيفه قائلاً له:

– خذه ، لقد استعملت معك الحيلة ولو لم أفعل ذلك لما حضرت إلى هنا أبداً، فأنا أريدك أن تقود جيشى وتدربه على فنون الحرب التى أصبحت فيها علماً. فقبل كرم الله عرض السلطان.

مرت عدة سنوات، وكان لكرم الله عدد من الأعداء، فقرر هؤلاء أن يوشوا به لدى السلطان، فذهب ثلاثة منهم الى السلطان علي دينار وقالوا له:

– سيدى إن كرم الله الذى أغرقته بأفضالك يسعى لأن يحل محلك، وهو نادم علي الوقت الذى ظلت فيه السلطة في يدك لايفتأ ينتقدك، فخذ حذرك لأنه قد تمكن من استمالة جيشك،

وإذا أراد أن ينقلب عليك فإن الجنود سيطيعونه وسيقتلونك، وهو يتفاخر بذلك.

فكر علي دينار ملياً ثم قال لهم:

– اذهبوا إلى كرم الله واطلبوا منه أن يذهب إلى الأمير فلان، وعندما يصل إليه سلوه هل قال ما قال، ثم تعالوا وأخبروني بما حدث.

وذهب المتآمرون الثلاثة لتنفيذ أمر السلطان وعندما جاء كرم الله لأداء صلاة الصبح في المسجد أرسل ذلك الأمير في طلبه، فذهب إليه كرم الله بعد أن تقلد سيفه وابتدر أحد المتآمرين الحديث قائلاً:

– هل صحيح أنك قلت كذا وكذا.

– وأنك تنوى أن تخلع سلطاننا؟.

وعلى الرغم من أن كرم الله لم ينطق بتلك الكلمات إلا أنه سواء أكان ذلك تحدياً لهم أم مللاً منهم أم كبرياءً عليهم رد بقوله:

– نعم، لقد قلت ذلك.

فوقف أحد المتآمرين خلفه وضربه بفأس علي عنقه، فسقط كرم الله على الأرض ومات في دقائق معدودة ثم أخذ المتآمر السيف من على الجثة وذهب إلى السلطان يتبعه شريكاه وأخبروا السلطان بموت كرم الله فاستشاط علي دينار غضباً وقال لهم:

– أنا لم أقل لكم اقتلوه ولكنى طلبت منكم أن ترجعوا لتخبرونى بما يقول.

وأمر فى الحال بتقييدهم ووضعهم فى السجن وفى اليوم التالي تجمع الناس تحت شجرة «القاضى الأطرش» التى كان يحيط بها سهل واسع وكان السلطان متعودا علي عقد مجلسه ومحاكماته تحتها.

وكانت قد أعدت حفرة كبيرة، وأمر السلطان بأن يوضع فيها السجناء الثلاثة وأن يدفنوا حتي صدورهم ثم يرجموا بعد ذلك حتي الموت ، ونفذ الحكم فى الحال.

وانتقم السلطان بذلك لمقتل كرم الله الذى لم يكن يريده، والذى كان بقعة سوداء تشوه اسم السلطان. وأمر بدفن كرم الله بإكرام. ثم احتفظ بسيفه حتى وفاته. وهكذا قدر الله أن يكون مصير كرم الله فى دارفور [٧] .

(١) كان أجداد كرم الله قد استقروا في جزيرة في منطقة دنقلا اسمها «كركوس» ومن هنا جاء لقب الكركساوي.

(٢) روى ذلك محمود خادم كرم الله لابنه يوسف الذي نقله لي بدوره.

(٣) البازنجر اسم أطلق علي الجنود السودانيين الذين كان يجندهم تجار الرقيق في عصاباتهم، أما في وثائق المهدية فيطلق هذا الاسم على قوات الأخوين محمد وكرم الله كركساوي، وعلى قوات الأخير بصفة خاصة.

(٤) مهدية ١/١٢، خطاب عثمان آدم إلى الخليفة بتاريخ ١٤ صفر ١٣٠٥هـ .

(٥) المصدر السابق ، خطاب ربيع الأول و ١٧ ربيع الآخر ١٣٠٥هـ.

(٦) جهاد ، ص ١٧٢ .

(٧) كل قصة كرم الله مع علي دينار حكاها لي ابنه، يوسف بن الأمير كرم الله كركساوي، في ٣ نوفمبر ١٩٩١م وذلك في منزل كرم الله نفسه في ود أرو بأم درمان.